مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد ١٣، العدد ٢ (١٩٩٩)، ٧٣٦-٧٤٩

مؤشر كتلة الجسم (BMI) لدى طلبة جامعة النجاح الوطنية
Body Mass Index of An-Najah National University Students

مالك شاكر
Malik Sahker
قسم التربية الرياضية، كلية العلوم التربوية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس
تاريخ التقديم: (١٩٩٩/٢/٦)، تاريخ القبول: (١٩٩٩/٦/٢٢)

ملخص

هدفت هذه الدراسة إلى تحديد مؤشر كتلة الجسم لدى طلاب وطالبات جامعة النجاح الوطنية، إضافة إلى بناء معايير لمؤشر كتلة الجسم للطلاب والطالبات، وإجراء مقارنات بينهما، ولتحقيق ذلك أُجريت الدراسة على عينة قوامها (٢٠٧١) طبق عليها معادلة مؤشر كتلة الجسم:

مؤشر كتلة الجسم (كغم/م٢) = الوزن (كغم) / (الطول بالمتر)٢

ومن أجل تحليل النتائج استخدمت المتوسطات الحسابية، والرتب المئينة، واختبار (ت) للمجموعات المستقلة، وقد أظهرت النتائج ان متوسط مؤشر كتلة الجسم عند الطلاب والطالبات كان جيداً في ضوء المعايير العالمية، حيث وصل المتوسط عند الطلاب (٢٢,٥٠كغم/م٢) وعند الطالبات (٢١,٣٠كغم/م٢) وفيما يتعلق بالمعايير كان أفضل مستوى عند الطلاب (١٩,٣٢كغم/م٢) بينما كان أفضل معيار عند الطالبات (١٨,٣٦كغم/م٢) . كذلك أظهرت النتائج وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى (= ٠,٠٥) في مؤشر كتلة الجسم بين الطلاب والطالبات لصالح الطلاب.

الدهون في الجسم أن جزءاً منها هام لحفظ الأحشاء الداخلية وتغليفها والحفاظ عليها من الصدمات، وتقدر هذه النسبة ٤% وهي ثابتة لا يتم اللجوء إلى استخدامها في إنتاج الطاقة حتى في حالات المجاعة، إضافة إلى ذلك تعتبر الدهون مهمة من اجل تخزين بعض الفيتامينات الهام A, D, E, K, ، إضافة إلى أهميتها في تغليف الأعصاب، وارتباطها في تكوين الهرمونات الذكرية التستيرون والأنثوية ألاستروجين (Adams, 1990; Lamb, 1984; Brooks, Fahey,1984) .

وحول نسبة الدهن المقبولة لدى الطلاب والطالبات يشير (Marley, 1984) ان النسبة المقبولة للطلاب تتراوح بين ١٢% ــ ١٥% بينما النسبة المقبولة عند الطلاب تتراوح بين ٢٠% ــ ٢٥% وعند زيادة الدهن عن النسب السابقة يصبح الشخص سواء أكان طالباً أم طالبة من أصحاب السمنة obesity التي تعتبر مشكلة عالمية ومظهراً من مظاهر العصر الحديث، عصر التكنولوجيا الذي يعتبر بمثابة نعمة ونقمة على الإنسان في آن واحد، نقمة في كونه سلب الإنسان نشاطه، ونعمه في كونه وفر على الإنسان الوقت والجهد والمال ، بالتالي أصبح من أصحاب السمنة، وما يرتبط بها من أمراض العصر، مثل تصلب الشرايين، وضغط الدم، والسكري، والتهابات المفاصل. وحول خطورة السمنة عالمياً يشير (Blackburn, & etal, 1994) ان ٣٣% من البالغين في الولايات المتحدة الأمريكية من أصحاب السمنة ، ــ ويشير (Musaiger & etal, 1995) الى ان ٣١% من الطالبات في جامعات الإمارات العربية المتحدة يعانين من السمنة .

وحول خطورة السمنة وارتباطها بالأمراض يشير و (Williams, 1995) إلى أن السمنة لها علاقة بـ ٢٦ مرضاً من الأمراض المعروفة حالياً، وان ما نسبته ١٥ ــ ٢٠% يدفنون سنوياً بسبب السمنة.

وحول العوامل المؤثرة في السمنة، فقد أشارت الدراسات العلمية ان هذه العوامل وراثية وبيئية، أما فيما يتعلق بالعوامل الوراثية فقد تم في العام ١٩٩٤ اكتشاف جين السمنة (Ob-Gene) والذي يُفسر العلاقة بين الأنسجة الدهنية وتخزينها مع الدماغ. وفي هذا الصدد يشير (Bouchard & eal, 1993) انه إذا كان أحد الوالدين سميناً فان احتمالية الإصابة بالسمنة

للمولود تكون ٦٠%، وتكون ٩٠% إذا كان كلا الوالدين سميناً، وتكون ١٠% إذا لم يكن الوالدين سمينين.

وفيما يتعلق بالعوامل البيئية فإنها ترتبط بالتغذية واستهلاك كمية سعرات اكثر مما يستهلك الشخص، وقلة المجهود البدني، إضافة إلى العادات السلوكية والاجتماعية الخاطئة، وفي هذا الصدد يُشير (Fitzgerald.S. & etal , 1997) الى ان حوالي ثلث المجتمع الأمريكي يعانون من السمنة بسبب مشاهدة التلفاز لمدة ٣ ساعات فأكثر يومياً وما يصاحبها من تناول المأكولات وبالتالي حدوث السمنة.

ومن المؤشرات الهامة لتحديد السمنة ونسبة الدهن عند الأفراد مؤشر كتلة الجسم Body Mass Index (BMI) (Adams 1990) والتي هي عبارة عن الوزن بالكيلو غرام مقسومة على مربع الطول بالمتر، والنسبة المطلوبة للرجال ١٩-٢٥كغم/م٢ وللسيدات ١٨-٢٥كغم/م٢ (عايد، ١٩٩٩) .

ونظراً لأن طلبة الجامعات يُشكلون شريحة هامة من شرائح المجتمع، ومن اجل الوقوف على حدة مشكلة السمنة وجد الباحث ضرورة إجراء مثل هذه الدراسة وهي التعرف الى دليل كتلة الجسم عند طلاب وطالبات جامعة النجاح الوطنية في نابلس.

الدراسات السابقة

من خلال مسح الأدب التربوي لم يتمكن الباحث من الوصول إلى أية دراسة اهتمت بدراسة "مؤشر كتلة الجسم لدى طلبة الجامعات" و إنما استطاع التوصل إلى تصنيف الرجال والسيدات تبعاً لمؤشر كتلة الجسم.

ففي هذا الصدد يشير (عايد ،١٩٩٩) ان المؤشر يكون في حدوده الطبيعية عندما لا يزيد عن ٢٥ كغم/م٢ للرجال و ٢٧كغم/م٢ للسيدات والجدول رقم (١) يبين المؤشرات الطبيعية وغير الطبيعية لهذا المؤشر.

الجدول رقم (١): تصنيف الرجال والسيدات بناء على مقياس مؤشر كتلة الجسم (كغم/م٢)

التصنيف	الرجال	السيدات
نسبة منخفضة	١٧,٩ ــ ١٨,٩	١٥ ــ ١٧,٩
نسبة جيدة	١٩ ــ ٢٤,٩	١٨ ــ ٢٤,٩
بدين	٢٥ ــ ٢٧,٧	٢٤,٥ ــ ٢٧,٢
سمين	٢٧,٨ فأكثر	٢٧,٣ فأكثر

(عن عايد، ١٩٩٩، ص١٨٥).

(Digirolamo, 1986) فان تصنيفه أقل تحفظا من التصنيف الذي أشار إليه (عايد،١٩٩٩) ويبدو ذلك واضحا في الجدول رقم ٢ .

الجدول رقم (٢): تصنيف الرجال والسيدات بناء على مقياس مؤشر كتلة الجسم (كغم/م٢)

التصنيف	الرجال	السيدات
لا يوجد سمنة	أقل من ٢٥	أقل من ٢٧
سمنة معتدلة	٢٥ ــ ٣٠	٢٧ ــ ٣٠
سمين	٣٠ ــ ٤٠	٣٠ - ٤٠
سمنة عالية	أكثر من ٤٠	أكثر من ٤٠

عن (Digirolamo, 1986)

في ضوء الاطلاع على التصنيفين السابقين فان الباحث يستند على تصنيف (عايد، ١٩٩٩) وذلك لأنه اكثر تحفظا، ويقع ضمن الحدود الوقائية للسمنة.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية الدراسة فيما يلي

١. المساعدة في التعرف إلى مستوى مؤشر كتلة الجسم لدى طلاب وطالبات جامعة النجاح الوطنية، وبالتالي تصنيفهم في ضوء المعايير العالمية، لمعرفة هل هم من أصحاب السمنة أم لا؟

٢. إن الدراسة الحالية سوف تساهم في بناء معايير المؤشر كتلة الجسم، وبالتالي المساعدة في تصنيف الطلبة بناءً على هذه المعايير، إضافة إلى أن هذه المعايير سوف تسمح بالمقارنة مستقبلاً مع طلبة الجامعات الفلسطينية ، والجامعات العربية.

٣. يتوقع من خلال إطار الدراسة النظري ونتائجها مساعدة الباحثين في البحث عن بحوث جديدة في المجال نفسه وعلى مستوى الجامعات والمدارس.

أهداف الدراسة

سعت الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية

١. التعرف إلى مستوى مؤشر كتلة الجسم لدى طلبة جامعة النجاح الوطنية .

٢. بناء معايير خاصة لمعادلة مؤشر كتلة الجسم لدى طلبة جامعة النجاح الوطنية .

٣. إجراء مقارنة في مؤشر كتلة الجسم بين الطلاب والطالبات في جامعة النجاح الوطنية .

تساؤلات الدراسة

سعت الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة التالية

١. ما مستوى مؤشر كتلة الجسم لدى طلبة جامعة النجاح الوطنية ؟

٢. ما مدى إمكانية بناء معايير خاصة لمؤشر كتلة الجسم عند الطلاب والطالبات في جامعة النجاح الوطنية ؟

٣. هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية من مؤشر كتلة الجسم بين الطلاب والطالبات في جامعة النجاح الوطنية ؟

مجالات الدراسة

١. **المجال المكاني :** جامعة النجاح الوطنية، نابلس.
٢. **المجال البشري :** طلاب وطالبات البكالوريوس في جامعة النجاح الوطنية للعام الدراسي ١٩٩٨/٩٧.
٣. **المجال الزماني :** أجريت الدراسة في الفترة الزمنية الواقعة بين ١٩٩٨/١٠/٢٥ ولغاية ١٩٩٨/١١/٢٧.

إجراءات الدراسة

منهج الدراسة

استخدم الباحث المنهج الوصفي المسحي وذلك نظراً لملاءمته لأغراض الدراسة.

مجتمع الدراسة

يتكون مجتمع الدراسة من طلبة البكالوريوس المسجلين في الفصل الدراسي الأول ١٩٩٨ والبالغ عددهم ٨٦٢٠ طالباً وطالبة كما وردت في سجلات عماده القبول والتسجيل في الجامعة.

عينة الدراسة

تكونت عينة الدراسة من ٢٠٧١ ممن يدرسون متطلبات الجامعة الإجبارية ، ومثل هذه العينة تمثل ما نسبته ٢٤% تقريباً من مجتمع الدراسة، والجدول رقم ٣ يبين توزيع أفراد عينة الدراسة.

الجدول رقم (٣): توزيع أفراد عينة الدراسة تبعاً لمتغير الجنس

الجنس	العدد	النسبة المئوية
طلاب	١١٠٤	%٥٣,٣٠
طالبات	٩٦٧	%٤٦,٧
المجموع	**٢٠٧١**	**%١٠٠**

أدوات الدراسة

من أجل تحديد مؤشر كتلة الجسم استخدم الباحث الأدوات التالية

١. ميزان ميكانيكي من نوع ديتكو (Deteco) لقياس الوزن بالكيلو غرام.
٢. الرستاميتر لقياس الطول.

* **ملاحظة**

تم إجراء جميع القياسات في قاعدة الجمباز في الجامعة ما بين الساعة ٨-١٠ صباحاً في الفترة الزمنية الواقعة بين ١٥/١٠/١٩٩٨ ولغاية ٢٧/١١/١٩٩٨.

ثبات المعادلة

من أجل تحديد ثبات المعادلة استخدمت طريقة تطبيق وإعادة تطبيق الاختبار (Test-retest) على عينة قوامها ٥٠ طالباً وطالبة لم يتم تضمينهم في عينة الدراسة بفارق زمني يوم واحد بين التطبيقين، حيث وصل معامل الثبات إلى ٠,٩٦ وهو معامل ثبات عال للمعادلة ويفي بأغراض الدراسة.

صدق المعادلة

نظرا لان مكونات المعادلة الصفر فيها حقيقي لأن المقياس نســـبي (Ratio scale) فـــان معامل صدقها سوف يكون عاليا، ومن أجل تحديد صدق المعادلة اعتمد الصدق الذاتي وهو:

$\sqrt{\text{للثبات}}$، حيث وصل الى ٠,٩٧.

المعالجات الإحصائية

من أجل معالجة البيانات إحصائيا استخدم البرنامج الإحصائي للعلوم الاجتماعيـة (SPSS) والمعالجات الإحصائية التالية : ــ

١. المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية من أجل تحديد مستوى مؤشر كتلة الجسم.
٢. الرتبة المئنية (Percentile Rank) من أجل بناء معايير مؤشـــر كتلـــة الجســـم للطـــلاب والطالبات.
٣. اختبار ت للمجموعات المستقلة (Independent T-test) من أجل تحديد الفرق في مؤشـــر كتلة الجسم بين الطلاب والطالبات.
٤. معامل الارتباط (Person Correlation) من أجل تحديد ثبات معادلة مؤشر كتلة الجسم.

نتائج الدراسة ومناقشتها

هدفت هذه الدراسة إلى تحديد مؤشر كتلة الجســـم (Body Mass Index) عنـــد طـــلاب وطالبات جامعـــة النجاح الوطنيـــة، إضافة إلى إجراء مقارنات بين الطلاب والطالبـــات وبنـــاء معايير لمؤشر كتلة الجسم عند كل منهما ، لتحقيق ذلك أجريت الدراســـة علـــى عينـــة قوامـــها ٢٠٧١، بواقع ١١٣٤ طالبا و ٩٦٧ طالبة، ثم قياس الطول والوزن لديهم من أجل تحديد مؤشـــر كتلة الجسم على النحو التالي : ــ

وبعد عملية جمع البيانات عولجت إحصائيا باستخدام البرنامج الإحصائي للعلوم الاجتماعيـــة (SPSS)

وفيما يلي عرض لنتائج الدراسة:

أولاً: النتائج المتعلقة بالتساؤل الأول

ما هو مستوى مؤشر كتلة الجسم لدى طلبة جامعة النجاح الوطنية في نابلس؟

للإجابة عن السؤال استخدمت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لكل من الطلاب والطالبات كما هو مبين في الجدول رقم ٤.

الجدول رقم (٤): المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية للطول والوزن ومؤشر كتلة الجسم لدى عينة البحث

المتغيرات	وحدة القياس	طلاب (ن=١١٣٤)		طالبات (ن=٩٦٧)		العينة (ن=٢٠٧١)	
		المتوسط	الانحراف	المتوسط	الانحراف	المتوسط	الانحراف
الطول	بالمتر	١,٧٧	,١٩	١,٦٤	,٨٧	١,٧٠	,٩٥
الوزن	كغم	٦٩,٧٠	٩,١٤	٥٧,٥٦	٦,٩٣	٦٣,٦٣	١٠,٣٥
مؤشر كتلة الجسم	كغم/م٢	٢٢,٥٠	٢,٧٣	٢١,٣٠	٣,٢١	٢١,٩	٤,٢٥

يتضح من الجدول رقم ٤ ان متوسط مؤشر كتلة الجسم كان عند الطلاب ٢٢,٥٠ كغم/م٢، وعند الطالبات ٢١,٣٠ كغم/م٢ وعند العينة ككل ٢١,٩كغم/م٢. وعند الرجوع إلى المعايير العالمية التي أشار إليها (عايد، ١٩٩٩) فان جميع النسب تعتبر جيدة بناء على تصنيف الطلاب والطالبات تبعاً للسمنة، حيث ان المعيار الجيد للطلاب يتراوح بين ١٩-٢٤,٩كغم/م٢) والطالبات ١٨-٢٤,٤كغم/م٢. ومثل هذه النتيجة، تبين وعي طلبة الجامعات لأثر السمنة على الأمراض وبالتالي الحفاظ على الوزن المطلوب.

ثانياً: النتائج المتعلقة بالتساؤل الثاني

ما إمكانية بناء معايير خاصة لمؤشر كتلة الجسم عند الطلاب والطالبات في جامعة النجاح الوطنية ؟

من أجل الإجابة عن هذا السؤال وهي بناء المعايير استخدمت الرتبة المئينية (Percentile Rank) والجدول رقم ٥ يبين ذلك.

الجدول رقم (٥): الرتب المئينية لمؤشر كتلة الجسم (BMI) لدى عينة البحث

الرتبة المئينة	الطلاب (ن = ١١٠٤)	الطالبات (ن = ٩٦٧)
%٩٠ +	١٩,٣٢	١٨,٣٦
%٨٠	٢٠,٥٧	١٩,٥٣
%٧٠	٢١,٢٢	٢,٠٥
%٦٠	٢١,٨٨	٢٠,٣٣
%٥٠	٢٢,٥١	٢١,٥٠
%٦٠	٢٣,٠٣	٢١,٥٨
%٤٠	٢٣,٦٦	٢٢,٢٠
%٣٠	٢٤,٦٠	٢٣,١٤
%٢٠	٢٥,٨٥	٢٣,٨٧
%١٠	٢٦ فأكثر	٢٤ فأكثر

* كلما كان مؤشر كتلة الجسم اقل يكون ذلك أفضل، لان زيادته تعني زيادة نسبة الدهن، وبالتالي زيادة السمنة.

يتضح من الجدول رقم ٥ ان الطالب الذي يحصل على ١٩,٣٢ كغم/م٢، والطالبة التي تحصل على ١٨,٣٦ كغم/م٢ أفضل من ٩٠% مقارنة بزملائهم، ويمثلون أفضل نسبة، ولديهم نسبة سمنة جيدة، مقارنة بالمعايير التي أشار إليها (عايد ،١٩٩٩).

أما الطلاب الذين يحصلون على ٢٦ كغم/م٢ فأكثر، والطالبات اللواتي يحصلن على ٢٤كغم/م٢ فأكثر. فتكون نسبة السمنة لديهم عالية، ويكونون من أصحاب السمنة حيث انهم افضل من ١٠% فقط ــ من زملائهم أيضا، مثل هذا المستوى يتفق مع التصنيف الذي أشار إليه (عايد،١٩٩٩) ومتقارب معه حيث ان ٢٧ كغم/م٢ فأكثر تشكل سمنة عند الطلاب و ٢٥كغم/م٢ تشكل سمنة عند الطالبات.

ومن خلال عرض نتائج المعايير يتضح أن غالبية أفراد العينة من الطلاب والطالبات في جامعة النجاح الوطنية ليسوا من أصحاب السمنة. وهذا يتفق مع النتائج في الجدول رقم ٤.

ثالثا: النتائج المتعلقة بالتساؤل الثالث

هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية في مؤشر كتلة الجسم لدى طلبة جامعة النجاح الوطنية في نابلس تعزى لمتغير الجنس؟

للإجابة عن السؤال استخدم اختبار ت للمجموعات المستقلة ونتائج الجدول رقم ٦ تبين ذلك.

الجدول رقم (٦): نتائج اختبار (ت) لدلالة الفروق في مؤشر كتلة الجسم بين الذكور والإناث لدى عينة البحث

ذكور (ن= ١١٠٤)		أناث (ن= ٩٦٧)		ت	
المتوسط	الانحراف	المتوسط	الانحراف	المحسوبة	مستوى الدلالة *
٢٢,٥٠	٢,٧٣	٢١,٣٠	٣,٢١	١٠,٤	,٠٠٠١

* دال عند (= ٠,٠٥) (ت) الجدولية (١,٩٦) بدرجات حرية (٢٠٦٩).

يتضح من الجدول رقم ٦ أن قيمة ت المحسوبة تساوي ١٠,١١ وهذه القيمة أكبر من قيمة ت الجدولية ١,٩٦ أي أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى = ٠,٠٥ في مؤشر كتلة الجسم بين الطلاب والطالبات لصالح الطلاب، بمعنى ان مؤشر كتلة الجسم عند الطلاب في جامعة النجاح الوطنية أعلى منه عند الطالبات، ويرى الباحث ان السبب في ذلك يعود إلى الفروق في الوزن حيث ان الوزن يكون أساسيا في معادلة مؤشر دليل الجسم ويؤكد على ذلك (Lamb, 1984) في إشارته إن القوة العضلية عند الطلاب تكون دائما أعلى منها عن الطالبات، وذلك بسبب حجم المقطع العضلي، وبالتالي الوزن عند الطلاب يكون أعلى مقارنة مع الطالبات.

التوصيات

في ضوء أهداف الدراسة ونتائجها يوصي الباحث بما يلي

١. اعتماد المعايير التي تم الوصول إليها عند الرغبة في تصنيف طلبة الجامعة بناء على شيوع السمنة لديهم.
٢. الاستمرار في توجيه الطلبة لأهمية الغذاء والتمرين معا ، في الحفاظ على الصحة الجيدة، والوقاية من حدوث السمنة.
٣. إجراء دراسة مقارنة في مؤشر كتلة الجسم بين الرياضيين، وغير الرياضيين في الجامعات الفلسطينية.
٤. إجراء دراسة مقارنة بين السنوات الدراسية الأربع، حيث أن اهتمام الطلبة بمظهرهم يكون اكثر بعد دخول الجامعة .
٥. إجراء دراسة على طلبة المرحلة الثانوية ومقارنتها بالجامعة.
٦. إجراء دراسة حول إمكانية بناء معايير لمؤشر كتلة الجسم على مستوى المدارس، ولمختلف المراحل الدراسية.
٧. إجراء دراسة مقارنة في مؤشر كتلة الجسم بين طلبة الجامعات الفلسطينية، وطلبة الجامعات في دول عربية وأجنبية.

المراجع

١. عايد، فضل، ملحم. (١٩٩٩) ، الطب الرياضي والفسيولوجي، قضايا ومشكلات معاصرة، دار الكندي للنشر والتوزيع، اربد، الأردن.

2. Adams. G,(1990), Exercise physiology Laboratory Manual, Wmc. Brown publishers.

3. Blackburn. G, duyer, J & etal, (1994). Report of the American institute and nutrition (AIN) steering committee on weigh, Journal of Nutrition, 124, (11), P. 2240-2243.

4. Bouchard. C.D, (1993). Exercise and obesity, Obesity Research , 1, p. 133-147.

5. Brooks, G & Fahey. T, (1984), Exercise physiology, Human Bio energetic and it's a applications, John Wiley & sons, Toronto.

6. Digrolamo. M, (1986) Body composition Roundtable, the physician and sports Medicine, P. 144-152.

7. Fitz Gerald , S.J , & etal, (1997), Associations Amony Physical Activity, television, &_obesity in adult Pima Indians.Medicine & Science in Sports & Exercise , 29, P.910-915.

8. Marley, W, (1984), Heath and physical fitness, soundars college publishers, Toronto.

9. Musiger. A, Radwan. H, (1995), social and dietary factors associated with obesity in university female students in United Arab Emirates , J.Roy. So. Health, 115, P. 96-99.

10. Lamb. D, (1984), physiology of Exercise, Responses & adaptations. Macmillan publishers company, New York.

11. Williams. M.H, (1995), Nutrition for fitness and sport Dubuque, Wm, C. Broun publishers.

مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد ١٣، العدد ٢ (١٩٩٩)، ٧٥٠-٧٨٧

الإنجليز في الأدب الفلسطيني
The Image of the British in the Palestinian Literature

عادل الأسطة

Adel Al-Osta

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

تاريخ التقديم: (١٤/٩/١٩٩٨)، تاريخ القبول: (٢٢/٦/١٩٩٩)

ملخص

يتناول الدارس في هذا البحث فكرة لها حضورها البارز في الأدب الفلسطيني، وهي صورة الإنجليز، ويتتبعها منذ عام ١٩١٧ حتى الوقت الحاضر. ويعتمد الدارس المنهج التاريخي، وعليه فإنه يقسم البحث إلى ثلاث فترات:

أ. منذ عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٤٨.

ب. منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧.

جـ. منذ عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٩٤.

وأبرزت النصوص، في معظمها، صورة سلبية للإنجليز، ويعود السبب في ذلك إلى سياسة الانتداب البريطاني وما نجم عنها، حيث تشرد الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨ عن ديـاره, وثمة صورة إيجابية أبرزها أولئك الأدباء الذين سافروا إلى إنجلترا وأقاموا فيها فترة من الوقت، حيث التقوا هناك بإنجليز لم يكونوا جنوداً في الجيش البريطاني الذي استعمر فلسطين ما بين ١٩١٧-١٩٤٨. وهكذا فإن اختلاف التجربة انعكس بدوره على إبراز صورة الإنجليز، تماماً كما أن الموقع الطبقي، لهذا الكاتب أو ذاك، أثر بطريقة ما على تشكيل الصورة.

The researcher studies an important motif in Palestinian Literature: the representation of the British. He follows it from 1917 to 1994. The method, which he uses, is the historical method, so this study is divided into three Period:

First: from 1917-1984.

Second: from 1984-1967.

Third: from 1967-1994

Most texts show us a negative image o the English. This is because of the British Mandat, which had a bad effect on the Arab people in Palestine. After 1948 most Palestinians became refugees,

The positive image, which we find, is in the texts of those writers who visited Britain & wrote their text after the end of the Mandat, but this does not mean that all autors who lived in Post-Mandat wrote in the same way.

In general we can say that Palestinian Literature give us a negative image of the English. We can understand the reason for this representation when we know how the English dealt with Arabs in Palestine.

لعل من (الموتيفات) التي يجدر الوقوف أمامها في أثناء دراسة الأدب الفلسطيني (موتيف) الإنجليز، إذ كان لهؤلاء ذكر بارز في النصوص الأدبية، منذ مجيء الإنجليز الى هذه الديار، ولم يغب ذكرهم برحيلهم عنها.

ويستطيع المرء، وهو يقرأ نصوص الأدب الفلسطيني، أن يلحظ شكلين مختلفين للكتابة عن الإنجليز، الأول يتمثل في ذكرهم ذكرا إجماليا، وهذا هو الغالب، والثاني يتمثل في تصوير شخصيات حية لها ملامحها الفردية الخاصة، وهذا هو النادر. ويتحقق الشكل الأول في الشعر، فيما ينجز الشكل الثاني في النصوص النثرية.

ويبدو توظيف المنهج التاريخي لدراسة هذا (الموتيف) هو الأنسب، وان احتاج المرء أحيانا الى الاستعانة بمناهج أخرى ترفده وتجعل من الأحكام التي يتوصل اليها الدارس أحكاما معقولة

مقبولة. وعموما يمكن الوقوف إزاء ثلاث مراحل تاريخية معينة كان لكل منها خصوصيتها، مما أثر على طبيعة الصورة وجعلها ، الى حد ما، تختلف عن سابقتها، وإن كان الاختلاف أحيانا يبدو طفيفا.

سوف أقف عند ثلاث فترات تاريخية لتبيان صورة الإنجليز في الأدب الفلسطيني، وهذه الدراسة، في حدود ما أعرف، تبدو الأولى من نوعها وإن كانت هناك دراسات حول صورتهم في الأدب العربي[١]، إذ لم أعثر من قبل على دراسة تتبعت هذا (الموتيف) بتفصيل بيّن، وإن كنت شخصيا أشرت إليه في دراستي "اليهود في الأدب الفلسطيني بين عامي ١٣ و ١٩٨٧".

١. المرحلة الأولى

وتمتد هذه المرحلة منذ بداية الانتداب البريطاني على فلسطين حتى نهاية عام ١٩٤٨. وكان الفلسطينيون، قبل بداية الانتداب، يخضعون للحكم التركي الذي استمر قرابة أربعة قرون، وبدا في أيامه الأخيرة حكما مزعجا، مما أدى الى تفاقم نقمة العرب عليه ورغبتهم في الاستقلال عنه. ومهما اختلفت الآراء وتعددت، سلبا أو إيجابا، فإن ما لا يستطيع أحدٌ إنكاره هو أن الأوضاع الاقتصادية والتعليمية والعسكرية، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لم تكن سليمة معافاة، وليس هناك من شك في أن هذا كله سرّع نهاية الحكم التركي وتفكك دولته. والذي لا خلاف عليه أيضا ان قسما من سكان فلسطين لم يكن راضيا عما آلت اليه الأوضاع، ومن هنا لم يمانع هذا القسم من تقبل الانتداب، ظانا أن الإنجليز خلف صالح لسلف طالح. ونجد مؤشرات هذا الوهم بما يكتبه بعض النشيطين في ميدان الصحافة في فلسطين...فها هو الشيخ علي الريماوي ينشد في ذكرى السنة الأولى لاحتلال بريطانيا القدس في ٩ كانون الثاني لعام ١٩١٧:

وهذا نهار فيه حلت قيودنا

وقد نشط الأقدام وانطلق الفكر

وحل محل الظلم عهد محبب

وقد لاح من بعد الظلام لنا فجر

بريطانيا العظمى وأنت شهيرة

وعندك طبعا يجمل الحمد والشكر

عهدناك للإســـلام أكرم دولة

عهدناك والعمران دينك والـبـــر(٢)

يقول اسكندر الخوري البيتجالي في إحدى قصائده التي نظمها يوم قدم الإنجليز الى فلسطين :

بنـي التايــمــز قد فزتم

وبالإنقاذ قد جئتم

بلاد القدس شـــرفتم

فأهلا أينما بتـــــــم

وسهلا فيكم أجمع(٣)

غير أن هذا الترحيب سرعان ما تلاشى من شعر الشاعر لأنه رأى في الإنجلـيز القـادمين مستعمرين ليس إلا(٤).

ولم يكن الترحيب بالإنجليز وقدومهم الى فلسطين حالة فردية، إذ يبدو أن القوميين العـــرب الذين أرادوا الاستقلال عن الأتراك لم يختلفوا عن الشاعر نفسه، فقد تحالف هؤلاء مع الإنجلـــيز ظانين أنهم لن يقعوا، مرة أخرى، تحت نير حكم سيء لا يرمي الى مصلحتهم، وإنما يتصـــرف انطلاقا من مصلحته هو ليس الا. ولكن ظن هؤلاء سرعان ما خاب، ليحل محل الاطمئنان والثقـة شعور بالخوف والتوجس والريبة. ولقد تجسّد هذا في قصيدة عبد الرحيم محمود "وعد بلفور"(٥) ، إذ رأى في الإنجليز الذين وقف العرب الى جانبهم، باعتبارهم حلفاء، صديقا غادرا لا يحفظ الـود ولا يعترف بالجميل :

رجحت موازين الحليف ومن نكن

معه يرجح بالعظيم الأكثـــر

وبنت له أسيافنا صرحا فلـــم

يحفظ جميل العرب، يا للمنكر

غدر الحليف، وأي وعد صانـــه
يوما وأيـــة ذمـــة لم يخفـــر
لما قضى وطرا بفضل ســـيوفنا
نســـي اليد البيضا ولم يتذكر(٦)

ولا يختلف اثنان على أن سياسة بريطانيا في فلسطين كانت السبب الأول في تشريد شـــعب بأكمله ليحل محله شعب آخر، وبريطانيا في إصدار وعد بلفور أعطت أرضا لا تملكـــها لمـــن لا حق لهم فيها، حيث عمل هؤلاء ، وبمساعدة الإنجليز وآخرين، على حرمـــان أصحابـــها منـــها، ليعاني هؤلاء معاناة ليس لها في الأفق نهاية. ولم يكن عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) يبالغ حيـــن قال عام ١٩٣٦:

إنـــي لأرسلهـــا مجلجـــــــة
الى الملك السعـــــودي
أستـــــار "مكـــــة" كيـــف
تسدلها على الخصم اللدود
تأبى الصحارى أن يدنس رملها
"فيلبـــي" و "مـــــودي"
لن تطهـــر الدنيـــا، وفيهـــا
"الإنجليز"، على صعيـــد
لـــو كـــان ربـــي إنجليزيـــا
دعوت الى الجحـــــود(٧)

والإنجليز في قدومهم مستعمرين دنس يدنسون الأرض، وهم خصم لدود، ومصدر للرجـــس والكفر أيضا. وليس بخاف أن أبا سلمى الذي كان في حينه شابا يقترب من اليسار إنما يصدر فـــي حكمه عليهم من الثقافة الإسلامية التي تربى عليها، ولكنه لا ينظر إليهم هذه النظـــرة لأنـــهم ذوو دين مغاير، وانما لأنهم مستعمرون ليس إلا، وما يعزز هذا أن نظرة اسكندر الخوري البيتجـــالي

إليهم لم تختلف، حين رأى ما يفعلونه في فلسطين، عن نظرة أبي سلمى. وكان وديع البستاني، وهو مسيحي قدم من لبنان الى فلسطين، يرى في الإنجليز، على الرغم من انضوائه تحت ديانتهم، مستعمرين، وكان يصدر، فيما يصدر عنه، عن حس قومي لاعن حس طائفي، وهو صاحب البيت المشهور:

أجل عيسوي واسألوا الأمس والغدا

ولكن عروبي يحب محمدا(٨)

ويستطيع المرء، هنا، أن يقف أمام أشعار ابراهيم طوقان، وأن ينظر فيها ليرى صورة الإنجليز في هذه الفترة، وهي الصورة الغالبة عموما وان لم تكن الوحيدة. وهي صورة سلبية الى أبعد الحدود، وإن لم تخل من ذكر إيجابي، وذلك حين يأتي على ذكر شكسبير.

يقول طوقان في قصيدته المشهورة "الثلاثاء الحمراء" (١٩٢٩) ما يلي :

فسمعت مَن منع الرقيق وبيعه

نادى على الأحرار يامن يشتري(٩)

وهو بيت يبرز صورتين للإنجليز، الأولى أنهم منعوا، في بلادهم، الرقيق وبيعه، والثانية أنهم أخذوا، في غير بلادهم، يبيعون الأحرار. وهم بذلك يكيلون بمكيالين، ويقيسون بمقياسين. ويأتي طوقان في القصيدة على وصف المندوب السامي البريطاني في حينه، ثم سرعان ما يصف الإنجليز بشكل عام، ويرى فيهم بشرا قلوبهم قاسية أقسى من الصخور، وهذه تبدو أفضل منهم، إذ يرتجى المرء منها الخير أما هم فلا خير يرجى منهم:

أنّى لشاك صوته أن يسمعا

أنى لباك دمعه أن ينفعا

صخر أحس رجاءنا فتصدعا

وأتى الرجاء قلوبهم فتقطعا

لا تعجبوا، فمن الصخور

نبع يفور

ولهم قلـــــــــوب كالقبـــــــــور

بـــلا شـــــــــــــــعور

لا تلتمـــس يومـــا رجـــاء عنـــد مـــن

جربته فوجدتـــه لم يشـــــــــــعر(١٠)

وصورة الانجليز في الأبيات السابقة تذكرنا بالآية ٧٤ من سورة البقرة، وقد نزلـــت وفيـــها يخاطب اليهود بأن قلوبهم كالحجارة أو اشد قسوة (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجـــارة أو اشدّ قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإنّ منها لما يشّقّق فيخرج منه الماء وإن منـــها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عمّا تعملون).

والإنجليز قساة وطغاة وقوم متجبرون، ولا خير من طلب العفو منـــهم. وتنتـــهي القصيـــدة بالبيت التالي :

جبروته فوق الذين يغرهم

جبروتهم في برهم والأبحر(١١)

ويسخر طوقان من الإنجليز الأقوياء الذين يزعمون بأنهم عادلون وأن جنودهم بواسل، وأنهم أصدقاء أوفياء وقوم لطيفون مع العرب، إذ لا يرى في هذا كله سوى كارثة ستحل بالعرب ليـــس الا، وهو بذلك لا يختلف عن اسكندر الخوري، إذ يخيب ظن الأول كما خاب ظن الثاني. يقـــول إبراهيم:

قد شهدنا لعهدكم (بالعدالـــــــة)

وختمنا لجندكم بالبســـــــالة !

وعرفنا بكم صديقـــا وفيـــــــا

كيف ننسى انتدابـــه واحتلالـــه

وخجلنا من (لطفكم) يوم قلتـــــم:

وعد بلفور نافذ لا محالـــــــة

مناهج للإبادة واضحـــــــات

وبالحسنى تنفذ والرصاص[١٤]

ولا يعثر المرء في أشعار الشاعر، على ذكر إيجابي للإنجليز، وحتى إتيانه على ذكر شكسبير، في قصيدة "في الرد على رؤوبين"، لم يخل من تعريض بالإنجليز المستعمرين، على الرغم من إقراره بعظمة ذلك الشاعر، يقول طوقان :

أي رئوبين هل قرأت شكسبيـــر ؟

بلى، أنت شاعر مشـــــؤوم

وشكسبير خالد القول فيكـــــــم

أمر (شيلوخ) في الورى معلوم

غير أن الذين منهم شكسبـــــــير

تناسوا ما قال ذاك العظيـــم[١٥]

ونحن نعرف أن شكسبير كتب مسرحية مشهورة هي "تاجر البندقية"، وأظهر فيها صورة سلبية لليهودي تمثل في شخصية (شيلوك)، وواضح أن طوقان يرى في (شيلوك) طامعا محبا للمال، وأن ما كتبه شكسبير صدر عن انسان عظيم، غير أن قومه تناسوا ما رأه وما صدر عنه.

وإذا كان القاص أو الروائي أكثر قدرة من الشاعر على تصوير الأفراد، وذلك لطبيعة النثر، إذ يستطيع أن يصف الملامح الفردية، وأن يأتي على ماضي الشخوص وحاضرهم، وأن يستطرد في تبيان ما يحبون وما يكرهون، فيجسد لهم بذلك صورة فردية خاصة نموذجية، لا صورة نمطية مثل تلك التي رأيناها حتى الان، إذا كان ذلك كذلك، فان النثر الفلسطيني، في هذه المرحلة، لعدم اشتداد عود أصحابه، إذ كان فنا طارئا وكتابه كتابا مؤسسين، لم يحفل بتصوير شخصيات إنجليزية، ولا أعرف ، في حدود ما قرأت، نصا نثريا كان فيه حضور بارز لشخصية إنجليزية، خلافا للشخصيات اليهودية. والرؤية الوحيدة التي فيها إتيان رمزي على ذكر الإنجليز هي "مذكرات دجاجة"[١٦] (١٩٤٣) لاسحق موسى الحسيني.

وإذا جاز لنا أن نفسر الرواية تفسيرا رمزيا، وهذا ما فعلـــه الدارســون وأنكــره الكــاتب عليهم[١٧]، فإننا نرى في العمالقة الذين يرد ذكرهم معادلا رمزيا للإنجليز. وبناء على ذلك نستطيع أن نبين صورتهم في النثر.

يبدو العمالقة، كما تقص الدجاجة الحكيمة عنهم، "طغاة"[١٨] ذوو أجسام ضخمة والحكم عندهم "لا يقوم على المثل العليا، ولا على المبادئ الصحيحة، وإنما يقوم على أساس واحد: هو القوة"[١٩] ويرسم لهم الدجاج الذي لم يزهم صورا مختلفة ، تنفيها الدجاجة الحكيمة التي تنطلق في رؤيتـــها للذات وللآخرين من أن الخير والشر موجودان دائما جنبا الى جنب فـــي البيئـــة الواحـــدة وفـــي الجماعة الواحدة وفي الفرد الواحد. وحين يتخيلهم الدجاج أقوياء متساويين فـــي القـــوة تجيـــب الدجاجة الحكيمة:

"ما أظن الأمر كما تقولين أيتها العزيزة، لأن الضعفاء موجودون في كل جيل مـــن الخلـــق، وكل مستقر من الأرض، ولا بد أن يوجد بين العمالقة القوي والضعيف، الطموع والقنوع، الظـــالم والمظلوم، واذن لابد أن تكون الفتن والحروب بينهم مستمرة" .[٢٠]

وتستطرد هذه في وصف الموازين التي يعتمدونها في الحكم على الأشياء وفي تقييم بعضهم، وهي موازين مختلفة استدعتها ظروفهم وحالاتهم المختلفة منهم" عندما يكونون في حالة توحـــش وعدوان يقومون بميزان القوة. وعندما يكونون في حالة غفلة عقلية وخلقيـــة يقومـــون بالمـــال. وعندما يكونون في حالة انحلال واضمحلال يقومون بالرذائل. وعندما يكونون في حالة ارتقـــاء وازدهار يقومون بالفضائل. وعندما يكونون في حالة سمو في الفكر والعقـــل يقومـــون بـــالعقل وهكذا".[٢١]

وتواصل: "نعم قد يفرض عليهم أن يزنوا الناس بغير موازينهم. فيضعـــون الجـــاهل فـــوق العالم، والشرير فوق الفاضل، والظالم فوق العادل، والجاحد فوق المؤمن، والخائن فوق المخلص، والقاعد فوق الساعي".[٢٢]

والعمالقة الذين رأتهم الدجاجات -أي العمالقة في فلسطين- بطشوا بالأسرة الآمنة الوديعـــة فهدوا أركانها "وزلزلوا كيانها وأورثوها الحزن والألم في غمضة عين. [٢٣]

وهكذا يتضح أن الحسيني الذي رسم للعمالقة صورا مختلفة منها الإيجابي ومنها السلبي، وقف-إزاء ما فعله العمالقة في بيت الدجاجة الفلسطينية-الموقف نفسه الذي وقفه الشعراء الآخرون ليرسم صورة واحدة لهم هي الصورة السلبية، وهي عموما الصورة التي عرفها أهل فلسطين للإنجليز، إذ رأوا فيهم مستعمرين أدى استعمارهم إلى ضياع بلادهم -أي الفلسطينيين - وتشردهم ليحل محلهم قوم آخرون، هم القوم الذين أعطاهم الإنجليز وعدا بتملك هذه الديار.

٢. المرحلة الثانية

وتمتد هذه منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧. رحل الإنجليز وشرد الفلسطينيون عن ديارهم، وأقيمت دولة إسرائيل التي بقيت تقيم فيها أقلية عربية تشبثت بأراضيها، على الرغم من الحكم العسكري الذي فرض عليها حتى عام ١٩٦٦. وعاش حوالي ٦٠٠ الف مواطن فلسطيني في المنافي العديدة حياة بائسة مظلمة.

ويلحظ قارئ النصوص الأدبية التي كتبت في هذه الفترة صورة سلبية للإنجليز يلخصها المثل الشعبي الذي ظهر في مجتمعنا أيام الانتداب ليصور سياسة الانجليز، وهو :"فرق تسد". وغالبا ما برز هذا في كتابات أدباء الداخل، وهذا ما وقفت إزاءه في كتابي[٢٤]. يبدو ذلك واضحا في رواية توفيق معمر " مذكرات لاجيء أو حيفا في المعركة" (١٩٥٧)، وفي رواية محمود عباسي "حب بلا غد" (١٩٦٢) وفي قصة مصطفى مرار "حمارنا وبريطانيا" (١٩٦٤) وفي قصة محمد علي طه "عاصفة في عش" (١٩٦٤). يرى السارد في نص معمر أن القوات البريطانية كانت تستثير الفريقين ضد بعضهما، ويذهب سلامة المشلاوي إحدى شخصيات نص عباسي الى ان الحاج امين الحسيني كان جاسوسا إنجليزيا قصد الإنجليز من خلاله تنفيذ سياستهم القائمة على إيقاع الفتنة بين العرب واليهود، فيما يؤكد الاسطة في قصة مرار، وهو شخصية يهودية، أن الإنجليز أدخلوا الوهم الى رؤوس العرب واليهود معا ليتفرغ الطرفان "لخدمتهم وتمكينهم من النصر في حروبهم التي لا تنتهي لمواصلة الاستيلاء على بلادنا وبلاد غيرنا"، وهم في قصة طه يريدون التفريق بين العرب واليهود حتى يسودوا، وأنهم متقلبون ذوو وجهين يقولون للعرب عن

اليهود أمورا سيئة حتى إذا ما التقوا باليهود أبدوا لهم الصداقة والمودة ليقولوا عن العرب، أمام اليهود، عكس ما كانوا يظهرونه للعرب وهم يلتقون بهم.

ويمكن هنا الوقوف قليلا أمام قصيدة راشد حسين "مقاطع مختاره من الملحمة الشعرية: الخيمة الصفراء". وتتكون هذه من ثلاثة مقاطع الأول عنوانه "توفيق" والثاني عنوانه "السبي" والثالث عنوانه "العم سلامة". يصف المقطع الأول كيف توحدت لغة الجميع ليتقنوا لغة البنادق وليمارسوا الحرائق ليحولوا حبال الكهرباء الى مشانق وليتسللوا الى أزقة حي أنا المتكلم الذي يعيش وقومه بهدوء وطمأنينة، لتمارس البنادق مهمة القتل فهي ظمآنة للدماء وقد بعثت الى هنا، ويكون توفيق الضحية. ويأتي المقطع الثاني على هجرة أهل القرية، فيتذكر أنا المتكلم سبي بابل، ويتساءل كيف عاد المسبيون ليمارسوا سبي الآخرين، فيما يصف المقطع الثالث "العم سلامة" أحد ضحايا الإنجليز، وهو شخص يعرفه أنا المتكلم ويزوره ويتحدث معه. والإنجليز للعم سلامه أعداء له مثل عاهته التي في منخريه. لقد جنوا عليه وعلى الأقارب، وحين يسأل عما يراه في الإنجليز يجيب :

- "الإنجليز" يلوكها حتى ليعتصر الأزيز

"الإنجليز ثعالب لا يأكلون سوى الدجاج"

وتهب ريح وقحة حتى لينطفئ السراج

فيعيد إشعال الذبالة وهو يحلف بالعزيز

والله هذي الريح أيضا في الوقاحة إنجليز.[٢٥]

ولئن كانت الصورة سلبية بشكل عام، فان لها، على أية حال ما يبررها، إذ أدى الانتداب البريطاني على فلسطين الى نكبة شعبها العربي، ولكن ما هو غير مبرر، وبخاصة في نصوص عباسي ومرار وطه، هو ذلك الادعاء الساذج بأن العرب واليهود كانوا ضحية لسياسة الإنجليز. حقا إن اليهود عاشوا، باطمئنان، في البلدان العربية، وأنهم كانوا يعملون معا ويتحدثون معا، وأن جزءا منهم أسهم في النهضة الثقافية إسهاما يعترف به الدارسون العرب، ولكن العلاقة بينهم وبين

الفلسطينيين لم تكن ، منذ بدايات هذا القرن، على ما يرام، وبخاصة حين بدأت الحركات الصهيونية تنشط لتأسيس وطن قومي. ولعل معمرا وراشدا كانا أكثر صدقا في تصوير العلاقة بين العرب واليهود، وما فعله الآخرون بسكان البلاد، ويبدو هذا واضحا في نصوص معمر القصصية القصيرة، وإن بدا واضحا أيضا في قصيدة راشد نفسها. وعلى العموم فإن كتابات مرار وطه وعباسي كانت كتابات خاضعة لزمنها الكتابي وما كانت عليه أوضاع هؤلاء في حينه، فبالإضافة الى أن عددا من هؤلاء من دعاة التعايش، كانت الوظيفة تحتم عليهم كتابة كلام يتنافى وكتابة الحقيقة. وهنا يمكن الكتابة عن صورة الإنجليز في نصوص أدباء المنفى.

لقد اختلفت نصوص أدباء المنفى اختلافا كليا، ولم ير أصحابها أن المشكلة تكمن في الإنجليز وحدهم، فهي تكمن أيضا في الحركة الصهيونية وفي اليهود بشكل عام. ويستطيع المرء هنا أن يميز بين كتاب صادر عن كاتب يساري وآخر صادر عن كاتب قومي وثالث صادر عن كاتب إسلامي. ولئن كانت النصوص الكثيرة التي كتبت لا تأتي على وصف الإنجليز، فانها تأتي على ذكر اليهود، وهنا يستطيع المرء أن يلحظ تعدد الخطابات واختلافها، وإن غلب عليها في هذه الفترة الخطاب القومي.

ومع ذلك فإن صورة الإنجليز تختلف عن تلك التي رسمها أدباء الداخل في جانب، وتتشابه في جانب. تختلف من حيث أن الإنجليز سبب فيما آلت اليه أمور الفلسطينيين، ولكنهم ليسوا السبب الرئيس، وتتشابه في أنهم – أي الإنجليز –لم يكونوا شرفاء في التعامل مع الآخرين، وخصوصا مع الفلسطينيين.

ويستطيع المرء، هنا، أن يقف وقفه متأنية عند نصوص غسان كنفاني الذي كان يصدر في كتاباته فيما بين عامي ٤٨، ١٩٦٧ عن فكر قومي، إذ كان قريبا من حركة القوميين العرب. حقا إن الأستاذ معروف في قصة "الدكتور قاسم يتحدث لايفا عن منصور الذي وصل الى صفد" يرى أن اليهود في فلسطين كانوا عربا، ولكنه يشير الى أنهم تغيروا، لا لأن الإنجليز أفسدوا بينهم وبين بقية سكان صفد من العرب، وإنما لأن الحركة الصهيونية بدأت تصهينهم. وهنا ثمة اختلاف بين بعض أدباء الداخل وأدباء المنفى. وواضح أن الموقع يترك تأثيره البين على الموقف، وأن كنفاني

يكتب هذا، لأنه لم يكن يعيش في تلك الظروف التي عاش فيها مرّار وطه وعباسي. وليس هناك من شك في أن ما يورده كنفاني على لسان الأستاذ معروف هو الأقرب الى الحقيقة والأكثر عمقا في التحليل.

فما هي الصورة التي رسمها كنفاني للإنجليز ؟

يمكن ذكر ثلاثة نصوص يذكر فيها الإنجليز ذكرا إجماليا، دون أن يخلو بعضها من ذكر شخصيات حقيقية لها أسماؤها الخاصة، ولكن هذه الأخيرة تصب في المجرى نفسه، إذ لا تختلف صورة الفرد عن صورة المجموع. وكما نعرف فان اكثر الإنجليز الذين وجدوا في فلسطين، إن لم يكن كلهم، كانوا جنودا وضباطا جاؤوا مستعمرين.

والنصوص هذه هي "درب الى خائن" (١٩٥٧) و "الدكتور منصور يتحدث لايفا.." (١٩٦٥) و "العاشق" (١٩٦٦) ، ولم ينشر كنفاني الأخيرة في حياته ، إذ كانت مشروع رواية لم تكتمل.

ثمة إشارة عابرة في القصة الأولى الى ما كان يقوم به الإنجليز في ملاحقة الثوار. -تسرد لنا إحدى شخصيات القصة عن فلسطيني يريد أن يقتل أخاه المقيم في اللد لأنه وشى بأبناء عمه لليهود، ولكنه لا يستطيع الوصول إليه، إذ هناك من يحول دون دخوله الى الأردن ويذكره هذا الذي يحول بينه وبين الدخول بالضباط الإنجليز ونظرتهم الى الثوار وتعاملهم معهم:

"أنني لا أستطيع أن أدخل الى الأردن الان...لماذا؟ لأنني كنت فوضويا" أيام كان (أبو حنيك) - أي كلوب باشا- يحكم الأردن.. إنهم يدرجون أسماء أولئك "الفوضويين" كلما أوصى (أبو حنيك) بخطة جديدة .."[٢٦]

والإنجليزي الذي يلاحق الثوار -أو الإنجليز الذين يلاحقون الثوار - ويقف الى جانب اليهود هو الذي يحضر في النصوص اللاحقة لكنفاني. إنه لا يكتفي بملاحقتهم، وإنما نجده يقف الى جانب اليهود ويتغاضى عما يقومون به من أفعال أدت الى قيام دولة إسرائيل. في "العاشق" يشعر الكابتن (بلاك) الذي يلاحق العاشق أو عبد الكريم أو قاسما، حين يلقى القبض عليه بسعادة فائقة:

"وقال له الميجور ماكلود وهو ينظر اليه من فوق سريره الخفيف : لم أرك في حياتي سعيدا كما تبدو الان، يخيل الي أنك تزوجت.

- تزوجت ؟ أوف ؟ أكثر من ذلك بكثير، أنت لا تعرف شيئا، لست تدري ماذا يعني أن يسقط عبد الكريم أخيرا.
- أعرف ، كنت تقول إن ذلك يشابه أن تجد نفسك فجأة في فراش مارلين ديتريتش".(٢٧)

وهي الصورة التي برزت بوضوح أكثر في القصة التي كتبها كنفاني قبل كتابة "العاشق" بعام واحد، ولا ندري كيف ستكون الصورة لو قرأنا العاشق مكتملة. سوف أقتطع فقرات من قصة "الدكتور قاسم يتحدث لايفا.." لنلحظ معا كيف كان سكان فلسطين ينظرون الى الإنجليز في أثناء انتدابهم على فلسطين. ولكن علينا ألا ننسى أن الزمن الكتابي للقصة هو عام ١٩٦٥، وأن الزمن القصصي – زمن الأحداث – يرتد الى فترة ما قبل عام ١٩٤٨. يقول الأستاذ معروف آتيا على ذكر اليهود العرب والإنجليز وموقف هؤلاء من اليهود الغربيين الذين أتوا بالسلاح:

"لقد شاهدت صفد عشرات من الحاخامية يدرجون فوق الأزقة المبلطة الى الكنيس عاما وراء الآخر. لديهم ثلاثة منه في صفد، هل كان هؤلاء الشيوخ ذوو اللحى البيضاء الطويلة وأغطية الرأس السوداء المكورة، هل كانوا يعرفون؟ هل كانوا؟ أنت لا تستطيع أن تقول شيئا الان. الإنكليز كانوا يعرفون، هذه حقيقة تستطيع أن تقولها وأنت مطمئن: لقد جاؤوا بالسلاح، سلاح كثير خفيف متوسط وثقيل فكيف كان الإنجليز يكتشفون، عندنا، خراطيش الصيد ولا يكتشفون عندهم كل تلك الأسلحة؟ وأنظر إليهم الان، انهم يسمحون لهم بإطلاق النار، ولكن إذا اطلقنا رصاصة، عندئذ يجيء المستر برهم رئيس البوليس ورجاله ركضا بالسيارات وعلى الخيل ليلهبوا مؤخراتنا بالرصاص وبالكرابيج ايضا، إذا استطاعوا، إنهم يسمحون لهم بالتسلق الى القلعة بين الفينة والأخرى، ماذا يفعلون هناك؟ المستر برهم وحده هو الذي يعرف، يركبون مدفعا؟ يحفرون خندقا؟ يدفنون رشاشات؟ لا يستطيع أحد أن يقول، المستر برهم وحده يعرف، ولكن إذا حاولنا الذهاب الى هناك، لنرى ماذا فعلوا، فسوف نجد إنكليزيا مسلحا وراء كل حجر ، وإنكليزيا مسلحا آخر أمامه يقولان لك : غو باك" (٢٨)

ويتابع

"- نحن هنا، الآن، بيننا وبين حارة اليهود صف من الإنكليز يتعقبوننا كالكلاب البوليسية .. الإنكليز مصابون بالعمى، بكل ما يختص باليهود، ولكن عيونهم عشرة علينا...هل تفهم من كل ذلك شيئا؟"(٢٩)

والسؤال هو : هل كان كنفاني يبالغ في هذا؟ وما من شك في أن ضياع فلسطين وتشرد شعبها، وكنفاني واحد من المشردين، لهو خير دليل على أنه لم يكن يبالغ، وأن الإنجليز، بالإضافة الى الحركة الصهيونية، السبب الرئيس في نكبة شعب فلسطين، وإن كانت هناك أسباب ذاتية ثانوية.

٣. منذ عام ١٩٦٧ حتى الآن

يلحظ المرء في هذه الفترة، على الرغم من ضآلة الحضور الإنجليزي في المنطقة إذ حل محله الحضور الأمريكي، وأخذت إسرائيل تبدو تابعة لأمريكا وتدور في فلكها، يلحظ المرء أن الكتابة عن الإنجليز ما زال لها حضورها، ولربما فاقت، على الأقل في الأدب، الكتابة عن الأمريكان. ولا يعدم المرء وجود كتابات كان للإنجليز فيها حضور لافت للنظر، حضور ربما فاق حضورهم في نصوص مرحلة ما قبل ٦٧ ومرحلة ما قبل ١٩٤٨. ولكنه بدا في جانب منه مختلفا، إذ تتعدد الصورة هنا وتتنوع، ولكن ظلال الصورة التي بدت في أدب المرحلة السابق والتي سبقتها تبدو واضحة أيضا.

وعلى العموم فان المرء القارئ للنصوص التي أنجزت فيما بعد ٦٧ يجد نفسه أمام ثلاثة أشكال من الكتابات :

الأول يتمثل في الكتابات التي أنجزها كتاب من منطق فكري جاهز، ويستحضر هؤلاء الماضي ليصوغوه تارة بشكل رمزي وطورا بشكل مباشر، ولكنهم في صياغتهم هذه وتلك لا يتمثلون الماضي كما كان، وانما يكتبونه منطلقين من رؤاهم الفكرية التي سادت في زمن الكتابة. وأبرز هؤلاء سميح القاسم.

١. سميح القاسم والكتابة من منطلق ايديولوجي

أنجز سميح القاسم بعد عام ١٩٦٧ نصين أتى فيهما بوضوح على تصوير العلاقة بين العرب واليهود والإنجليز، وهما "المطعم" وهو نص مسرحي كتبه القاسم عام ١٩٧٠، و "ثالث أكسيد الكربون" وهي مطولة شعرية، أو سربية كما أطلق عليها الشاعر، نشرها عام ١٩٧٦. وكان سميح يوم كتب نصيه عضوا بارزا في الحزب الشيوعي الإسرائيلي، حيث كان محررا في جريدة "الاتحاد " ورئيسا لتحرير مجلة "الجديد". ولا ينكر من يقرأ نصوصه التي انجزها في تلك الفترة – أي فترة انتمائه للحزب الشيوعي– أنه كان فيها – أي في نصوصه – داعية" للأفكار الحزبية ومروجا لها وعاكسا في كتاباته أيضا لها(٣٠).

يتكون النص المسرحي الذي أصبح عنوانه في "أعمال سميح القاسم الكاملة" على النحو التالي: "هكذا استولى هنري على المطعم الذي كان يديره رضوان وشلومو وحوله الى دكان لتجاره المعلبات"، يتكون من أربعة مقاطع ويضم أربع شخصيات هي شاعر الربابة. ورضوان وشلومو وهنري، وترمز كل واحدة منها الى فئة بشرية معينة، فشاعر الربابة هو صوت الشاعر الذي يلحظ جشع الأغنياء وطمعهم، ورضوان يرمز الى البرجوازية العربية، ويرمز شلومو الى البرجوازية اليهودية، فيما يرمز هنري الى الرأسمالية البريطانية، وأما المطعم فهو ليس سوى فلسطين.

يمتلك رضوان وشلومو المطعم ويتقاسمان الأرباح، فيما يقف شاعر الربابة جائعا، وحين يقترب من المطعم يلجأ رضوان الى طرده، ولا يعجب هذا شلومو الذي يرى أن ثمة إمكانية للإفادة من صوته الذي قد يجلب الزبائن. ولا يفكر رضوان وشلومو سوى بالربح، وإن كان ثمة تفكير قومي ينتابهما أحيانا، فحين يفتتح مطعم جديد مقابل مطعمها يفكر شلومو بالمحافظة على الربح، ويقترح طرد العامل سعيد، وهذا يدفع برضوان الى التفكير بطرد العامل ديفيد حتى تزداد الأرباح. ولا يفرق بين رضوان وشلومو سوى هنري الذي يزور المطعم ويقترح على كل منهما مشاركته والأضرار بشريكه الأول، ويعمل هنري على الإفساد بين الطرفين، ويتمكن في النهاية من الاستيلاء على المطعم وتحويله الى دكان لتجارة المعلبات.

وليس هناك من شك في أن هذا التصوير للصراع العربي الإسرائيلي ودور بريطانيا فيه لا يعكس سوى رؤية مسطحة ساذجة، رؤية فرضها في حينه الفكر السياسي للكاتب.

وتصوير الإنجليز هذا، على هذه الشاكلة، ليس، عموما ، بالجديد، فلقد برز في كتابات معظم كتاب الفترة السابقة، ولكن الجديد فيه هو ان القاسم حاول ان يبرز البعد الطبقي في المسألة. ويبدو هنري هنا رأسماليا مفسدا لا تهمه سوى أرباحه ومصالحه.

الصورة إياها تبرز من جديد في مطولة سميح "ثالث أكسيد الكربون" التي تبدو ذات بعد تاريخي للمشكلة الفلسطينية منذ إصدار بريطانيا وعد بلفور (بريطافور). وتتكون المطولة من ثلاثة مقاطع هي : سيرة بريطافور، وسيرة بنيون، وسيرة جليات. واذا أردنا أن نبسط الأول نقول إنها سيرة بريطانيا بلفور وسيرة صهيون – الصهيونية، وسيرة جليات الفلسطيني المعاصر.

وان كان هناك ما يضيف الى صورة هنري، وهي الصورة التي تبرز ايضا في المطولة، فهو يكمن في أن بريطافور في بلاده بدا جميلا غير قبيح، ولكنه بدا قبيحا يوم اخذ يوظف الأسلحة للسيطرة على الآخرين. ويفتتح سميح مطولته بالتالي :

في البدء سيخرج الأطفال وقد عبأوا جيوبهم بالحلوى

سيتسللون الى معسكر الدبابات والمجنزرات

سيدسون قطع الحلوى في صهاريج الوقود

سيكتشفهم الجنود سيفتحون عليهم نيران رشاشاتهم

.....

أما أنت يا بريطافور فلن نغفر لك

بريطافور أيها الديناصور القاتل لن نغفر لك

دمنا لن يجف

فرح دهورك تزلزلهم لحظة من حزننا

وما اشد شماتتنا بك يا بريطافور

أيها الديناصور الغارب مع إمبراطوريتك الغاربة(٣١)

ويبدو بريطافور هنا وحشا قاتلا قاسيا، فيما تبدو صورة الذات مغايرة كليا. الطفولة والبراءة والمسالمة. وتغلب هذه الصورة لبريطافور على النص كله تقريبا، وإن كانت له ثمة صورة أخرى تبرز فهي صورة بريطافور في بلاده:

كان بريطافور فتى جميلا يصطاد الأسماك

على سواحل جزيرة شمالية يغطيها الثلج والضباب

كاللبنة الناصعة على رغيف ساخن ..(٣٢)

ولكنه منذ غادر كوخ والديه وآثر النوم في كهف صخري صغير على شاطئ المحيط وقع تحت تأثير ربه الظلام والكوابيس التي فتنت بجماله وفتوته النابضة كبركان، وسيطرت هذه عليه، ونفخت في اذنيه وهو نائم فأصبح مسخا واحتقنت روحه بالأحلام الشريرة وشهوة البطش.

وليس هناك خلاف في أن سميحا يكتب عن عالم اكتمل ، الى حد ما، واتضحت معالمه. إنه يستحضر ماضيا ترك أثره على الحاضر، وكانت النتيجة فادحة وفظيعة ومرعبة. إنه يكتب وهو ينتمي الى شعب ظلم وعانى ولم ير من الإنجليز إلا الأثر الذي خلفوه : الدمار والتشريد والحروب، وهم – أي الإنجليز – الذين ساعدوا شلومو وبنيون ووقفوا الى جانب الحركة الصهيونية، باعتبارها جزءا من الامبريالية العالمية، وهكذا يتشابه سميح – الى حد ما – مع غسان.

ب. فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا : الكتابة عن تجربة معيشة

يقدم كل من فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا في سيرتيهما الذاتية تصورا مغايرا للإنجليز، تصورا يبدو إيجابيا في المطلق، ولا يلحظ المرء إطلاقا تلك الصورة السوداء التي غلبت على

نصوص المرحلتين السابقتين. فلا نعثر فيما كتبا على صورة الإنجليزي المستعمر او الإنجليزي الضابط المنحاز الى إسرائيل الذي سبب الكوارث والمآسي للشعب الفلسطيني إلا نادرا. ويكاد الذكر السلبي للإنجليز الذي يبرز، أحيانا قليلة في بعض قصائد فدوى[٣٣]، يكاد يكون استثناء غير ذي بال. وهو ما يبدو في قصيدة "في المدينة الهرمة" حيث تتذكر فدوى، وهي في لندن، مأساة شعبها، وتتذكر أخاها إبراهيم وما قاله في الإنجليز، وبخاصة في قصيدته "الثلاثاء الحمراء".

هنا كان سوق النخاسة، باعوا هنا

والدي وأهلي

فقد جاء وقت سمعنا الذي منع

الرق والبيع نادى على الحر : من

يشتري [٣٤]

وربما يجدر الوقوف إزاء الجزء الأول من سيرة فدوى طوقان "رحلة صعبة...رحلة جبلية" (١٩٨٥) التي اخذت تنشرها في نهاية السبعينيات على صفحات مجلة "الجديد" الحيفاوية، ففيها إفاضة في الكتابة عن حياة فدوى في لندن، إذ تمتد الكتابة عنهم لتغطي حوالي ثلاثين صفحة، نصغي فيها الى رأي فدوى في الإنجليز والى رأي ابن عمها فاروق الذي درس هناك.

ينبغي الإشارة هنا الى أن فدوى تكتب في نهاية السبعينيات عن حياتها في لندن في بداية الستينيات، وأنها تكتب عن عالم مغاير كليا لعالمها الذي عاشته منذ ولادتها حتى سفرها. كانت فدوى في نابلس، منذ طفولتها، مقموعة من أسرتها، تعاني من الوحده والعزلة وتفتقد الحب والحنان من أقرب الناس اليها. منعها أبوها من الذهاب الى المدرسة، ووقف أخوها الى جانب أبيها، ولم تلق من العطف الا اقله، ولما مات أخوها إبراهيم شعرت انها وحيدة في هذا العالم. هذا جانب، أما الجانب الثاني الذي يجب علينا تذكره أن فدوى كانت تنحدر من اصول عائلية برجوازية كانت تملك المال الوفير، وبالتالي فان صورة الإنجليز المنجزه في نصها هي صورة تصدر عن البرجوازية الفلسطينية التي كان ثمة صلات بينها وبين الانجليز، صلات لم تخل من

ود. ولعل ابراهيم طوقان كان الاستثناء الوحيد، اذ طغت عليه المشاعر الوطنية، عدا انه كان يكتب ببصيرة من يرى وطنه يسير الى الفناء، لا كتابة من يعيش في لندن، وقد رحل الانجليز عن دياره.

ترى فدوى ان لندن "قلب الحضارة"[٣٥] ولهذا تفكر في زيارتها، ويساعدها على ذلك ابن عمها فاروق الذي يدرس هناك، ويقدم هذا صورة ايجابية جدا للانجليز الذين يذهبون الى الكنيسة ليلاقوا "ربهم مرة في الأسبوع آملين منه أن يجعل السلام يخيم عليهم وأن يبعد عنهم شبح الحرب، فقد ذاقوا ويلاتها مرتين في هذا القرن، ترينهم لا يريدون الغنى او الرزق - لأنهما حاصلان - بل يريدون السلم والسلام"[٣٦] ويكتب فاروق في رسائله لفدوى عن الانجليزي اللطيف، رئيس الكلية التي يدرس فيها او عن الحياة البسيطة في لندن "إن الحياة هنا أبسط بكثير مما نتصورها في بلادنا، وأن الحياة جميلة، ويمكن ان تكون خالية من كل ما يسبب وجع الرأس وتنغيص المزاج"[٣٧].

ومع أن الصورة التي يقدمها هذا البرجوازي الفلسطيني للانجليز تبدو ايجابية الا أن وصف الانجليز بالخبث يطل علينا، فالاساتذة الذين مدحهم يحاولون اختباره ليعرفوا مدى ثقافته ولذلك يسألونه اسئلة "كان بعضها خبيثا، بمعنى تضمنها نية كشف اوراق الشخص"[٣٨].

وتكتب فدوى عما رأته في لندن وعمن عاشرتهم وتكتب عن العائلة التي اقامت بينها وهي عائلة (فيرنيش)، وعن جمال الطبيعة الانجليزية، وعن النظام في بلاد الانجليز، وترسم صورة جميلة جدا للندن، تكتب ذلك كله بروح من خرج من الظلمة الى الفضاء:

"أيامي في انكلترا لا تنسى.

لقد عرفت في انكلترا فرحة السجين بلحظة الخروج الى الفضاء والنور. لا يحس بجمال الحرية وبروعة امتلاكها الا اولئك الذين حرموا منها".[٣٩]

وترى فدوى في الانجليز بشرا متحضرين يتكلمون بصوت خفيض، وتتذكر قول نيتشه: "كلما ارتقى عقل الانسان قلت رغبته في الضجة"[٤٠]

واذا ما قارنا بين سلوك الانجليز في فلسطين وسلوك عائلة (فيرنيش) في لندن، اذا ما قارنا سلوكهم ازاء الفلسطيني وجدنا فارقا كبيرا. يصبح الانجليزي المستعمر القاسي القاتل انسانا ودودا.

"أحاطني السيد فيرنيش وزوجته بالرعاية والمودة"(٤١) ويصطحبها أيام الاحد، بصحبة ولديه، الى الريف الانجليزي الجميل ويأخذها كل يوم، من مكان سكنه في الضواحي، الى لندن ويعيدها معه. وتدهش فدوى من معالم لندن : شكسبير والمسرح والحدائق والمتاحف. وتعجب كذلك بمراعاة سكانها لمشاعر الاخرين وعدم ايذائها، فحين يعرف أستاذ دورة اللغة الانجليزية انها لا تأكل لحم الخنزير، يدعوها ويسألها إن كانت مسلمة، ليتصرف بعد ذلك بناء على هذا، فلا يضع لها قطعة لحم الخنزير، وان كان ثمة سبب آخر لذلك هو الوعي الاستهلاكي العجيب الذي يتمتع به الانجليز :

"وعي استهلاكي عجيب يتمتع به الانكليز: كل الانجليز، وهو وعي قلما عرفناه نحن العرب"(٤٢)

وفي لندن تقابل فدوى انجليزا يكرهون الاستعمار، ويدهشها ، وهي التي نشأت في ظل الاستعمار البريطاني البغيض لبلادها، أن تعرف ان هناك كتابا وأدباء وشعراء، وفنانين معاصرين يكرهون الاستعمار ويمكن اقتطاع المقطع التالي، على طوله، لتبيان رأي فدوى نفسها في الانجليز، بعد تجربتها هناك :

"هذا يقودني الى الحديث عن الانطباع الذي تركته في نفسي اقامتي هناك بالنسبة لطبيعة الانسان الانكليزي وما عرف عن قوة احساسه بفرديته وحب لعزلته. انه شديد التحفظ (والخصوصية)، لا يتكلم عن نفسه ولا يستحضر في أحاديثه موضوعات شخصية تشعرك بالحميمية والألفة الانسانية، وتحفظه هذا ليس تجاه الاجنبي فقط بل تجاه الانسان الانجليزي نفسه. وعبارة (بيت الانجليزي قلعته) من أقوالهم المأثورة، فهو لا يسمح لأحد بدخوله. ان الاسرة الانجليزية مرتبطة بالبيت، ولا تحب تبادل الزيارات مع الجيران، حبها يستأثر به بيتها وكلبها وحديقتها. ترى الجار يحيى جاره من وراء سياج الحديقة، ثم يعلقان بكلمتين على حالة الطقس، ولا أكثر من ذلك. ولكن أهل الريف يظلون أكثر ودا وتلقائية.

من جهة أخرى يبقى الانكليزي متحفظا الى أن يثق بك، فاذا حصل التعارف الحقيقي ونشأت الصداقة تصبح انت جزءا من الاسرة وتستمر العلاقة. إن القول بأن الانكليز غير عاطفيين وغير انفعاليين تدحضه فيما اعتقد حقيقة كونهم جنسا منضبطا إلى أقصى حد فلا يجاهر بأحاسيسه، ولعل ذلك يرجع الى أسباب تاريخية واجتماعية. إنهم يتعمدون إخفاء انفعالاتهم تحت قناع من البرود المصطنع".[٤٣]

وهنا يمكن الوقوف أمام نص جبرا ابراهيم جبرا "شارع الاميرات: فصول من سيرة ذاتية"[٤٤] (١٩٩٤)، وكان جبرا أصدر، من قبل، الجزء الاول من سيرته تحت عنوان "البئر الاولى"[٤٥] (١٩٨٧) كتب فيها عن طفولته وحسب.

يذكر جبرا في "شارع الاميرات" أنه ذهب إلى انجلترا في عام ١٩٣٩ ليدرس هناك، مبعوثا من "دائرة المعارف" في القدس، إبان الانتداب البريطاني على فلسطين، ويكتب بعض فصول هذا الكتاب عن تجربته في تلك السنوات. وعلينا هنا ألا نغفل ذلك. بمعنى آخر إن جبرا لا يكتب عن تلك السنوات، كما عاشها في حينه، وإنما يكتب عنها بعد أن نضج واتسعت تجربته وأصبح الماضي بعيدا. يكتب عنها وهو في بغداد وقد أصبح يعيش حياة مختلفة عن تلك التي كان يعيشها في فلسطين، يكتب عنها من خلال رؤية المثقف الذي قرأ الأداب الانجليزية وعلمها وترجم نصوصا منها. وليس بمستغرب ان يكتب جبرا عن الأدباء الانجليز الذين ملأوا الدنيا وشغلوها، من (شكسبير) الى (وردزورث) الى (شيلي) الى (كيتس) الى (كولردج)، وأن يكتب أيضا عن جمال الطبيعة الانجليزية التي انعكست في أشعار هؤلاء.

ومع أن جبرا يشير غير مرة إلى أنه "كأي شاب في ظروفي تلك، أحمل معي مآسي بلدي أينما ذهبت. فلسطين لم تكن تغيب عن بالي لحظة واحدة، ولا كانت تغيب عن بالي هموم أسوتي في تلك الفترة العصيبة"[٤٦] وأنه حين كان يلتقي ببعض المثقفين الانجليز، وبخاصة في اثناء اقامته في العراق بعد عام ١٩٤٨، كان يركز في حديثه "على ما جرى في فلسطين من قتل وتشريد واغتصاب للأرض من قبل الصهاينة"[٤٧] إلا أنه يرسم صورة للانجليز تبدو كما لو أنها صادرة

عن إنسان لم تضع أرضه بسبب سياسة الانجليز. فهل يعود السبب في ذلك إلى أن الشخصيات التي عرفها منهم كانت تدرك بؤس سياسة دولتها، وهو ما بدا في حديث أغاثا كريستي معه:

"هذا كله يجب ان يعرفه العالم ..وبالتفصيل..يجب ان يكتب المؤلفون عن هذه الفظائع، عن هذه اللانسانية التي كنا نقول إن الحرب العالمية ستضع حدا لها.. أردنا من الحرب أن تنهي الحروب كلها – ولكن يبدو أننا رحنا من جديد نزرع البذور لحروب كثيرة قادمة. ما هكذا تصفي الامبرطورية البريطانية نفسها.."(٤٨)

والأسماء الحقيقية التي يذكرها جبرا في الفصل الذي حمل عنوان "حكايتي مع آغاثا كريستي" تبدو مثقفة ثقافة واسعة جدا، لاهم لها، ابتداء، سوى خدمة الحضارة الانسانية، وبعض هذه الشخصيات وأبرزها (دزموند ستيوارت) يدافع عن العرب ويناصر قضيتهم بحرارة وذكاء في كل ما يكتب.

ولا يختلف (روبرت هاملتون) الذي التقاه جبرا في فلسطين قبل عام ١٩٤٨، وكان هذا الباحث الاركيولوجي مديرا لمتحف (روكفلر) للآثار الفلسطينية في القدس، عن الشخصيات الاخرى التي يذكرها جبرا في هذا الفصل. ولأول مرة ، تقريبا، نقرأ عن انجليزي في فلسطين لم يكن ضابطا خبيثا او استعماريا. وكما ذكرت، فعلى المرء ألا ينسى أن جبرا يكتب هذا في التسعينيات لا في الاربعينيات.

يجدر الوقوف، في أثناء البحث عن صورة الانجليزي في سيرة جبرا، أمام الفصلين "أنا وهاملت واوفيليا" و "سيدة البحيرات"، إذ فيهما يقص جبرا عن فتيات انجليزيات تعرف، في أثناء اقامته هناك، عليهن أو التقى بهن لقاء عابرا.

يقص جبرا في الفصل الاول عن (غلاديس نيوبي) الطالبة التي تعلق بها وكانت من شمال انكلترا، وهي فتاة جامعية مثقفة تعلقت به مثل تعلقه بها. وليس الأمر هذا بمستغرب، ولكن الطريف في القصة أن شابا انجليزيا تعلق بها وهو (ستيف دنكرلي)، وكان يعرف عن تعلقها بجبرا، ولأنه يريد الزواج منها يكتب هذا لجبرا حتى يبتعد عنها، فهي تعرض عنه بسبب جبرا.

ولما كان جبرا و (غلاديس) يدركان صعوبة استمرار العلاقة، وتوافق هي على الزواج من (ستيف)، تطلب من خطيبها ان يرافقها حتى تودع جبرا، فيوافق على ذلك، ويلتقي الثلاثة معا في مدينة تقع في الوسط ما بين مدينة (هل) و (لندن)، بعد أن قطع (ستيف) و (غلاديس) مسافة ٤٠٠كم على دراجة، على الرغم من الامطار والبرد. والاطرف من هذا كله أن (ستيف) يترك غلاديس مع جبرا ويسبقهما الى الفندق، ويذكر جبرا:

"وما حدث في بقية ذلك النهار والليلة التي أعقبته، لا يمكن أن يروى بسهولة. فقد كان كالحلم: بعضه رعب، ومعظمه لذة وكله اشبه بالمستحيل".(٤٩)

فما الذي أخفاه جبرا، وما هو الذي لا يمكن ان يروى بسهولة؛ فهل كان الانجليزي ديوثا؟

في الفصل نفسه يقص جبرا عن راقصة الباليه التي سألته ان كان هاملت يتعرف على (جين هاريسون) حين تسأله السؤال لأنها ترغب في مفاتحته بالكلام، وبخاصة بعد ان رأته أمس في قاعة المسرح بين الجمهور . وتبدو فتاة مندفعة في سلوكها، تقيم معه أياما " في أحراش شكسبيرية ملأى بشموس متفجرة"(٥٠) الى أن ذهبت الى مدينتها (بيرمنغهام) وعاد هو الى غرفته في اكسفورد. وكان جبرا قد التقى بها في الوقت الذي كان يعرف فيه (غلاديس).

وكما هو الحال في بعض روايات جبرا، نجد أنفسنا أمام شخوص لا يمانع الواحد منها في أن تقيم أكثر من علاقة حب في الوقت ذاته ولكن الفتاة الانجليزية لا تبدو دائما مثل (جين هاريسون) و (غلاديس نيوبي). يقص جبرا في الفصل الذي عنونه ب "سيدة البحيرات" عن شابة انجليزية لا تتجاوز الخامسة والعشرين تهيم حبا بيسوع المسيح. تظهر هذه في منطقة البحيرات فجأة، وتغيب ايضا فجأة، ولا يستطيع جبرا نسيانها، وحين تعرف انه من بلاد يسوع تخاطبه:

"يا الله : هل أنت حقا من المكان الذي مشى هو في طرقاته ؟ من المكان الذي تكلم فيه، وتعذب وصلب؛"

ويظنها جبرا باديء الأمر شاعرة، فاذا هي تسبح في بحران "الهي" لم يكن مألوفا" لديه. ويتابع جبرا:

"أردت تغيير مجرى الحديث، والنزول به الى مستوى الواقع العادي فسألتها : هل صعـــدت هذا الجبل؟"

إلا أنها بقيت في نشوتها، وقالت متجاهلة سؤالي : "كان دائما يقول : أنا الطريق...ارجـوك، اسمعني العبارة بالآرامية".(٥١)

هذه هي صورة الانجليز في السيرة الذاتية لجبرا، وهي مثلها في سيرة فدوى، وتكاد تختلـف اختلافا كليا عن صورتهم في نصوص اولئك الذين لم يزوروا لندن، ولم يروا من الانجليز ســوى المستعمر الخبيث الذي يقف الى جانب الحركة الصهيونية واليهود.

جـ. توفيق فياض والصورة القديمة للانجليز

أصدر توفيق فياض عام ١٩٩٤ رواية عنوانها "وادي الحوارث". وزمنها الروائي هو ما قبل عام ١٩٦٧، وتجري أحداثها في الضفة الغربية في الاردن، ولكن الزمن الروائي يرتد الى فترة ما قبل عام ١٩٤٨ ايضا. وهكذا اذا أردنا أن نكتب عن صورة الانجليز في الرواية بناء على الزمـن الروائي وحده ادرجناها ضمن المرحلتين الاولى والثانية، ووجب علينا ايضا، في هذه الحالـة، أن ندرس نص فدوى في المرحلة الثانية ونص جبرا في المرحلة الاولى. ولا تختلف صورة الانجليز في نص فياض هذا عن الصورة التي بدت لهم في نصوص المرحلة الاولى ونصوص المرحلـة الثانية، وبخاصة تلك التي كتبت في المنفى، ولعلنا لا نجد في صورة الانجليز، في نص فياض، ما يضيف جديدا إلى تلك الصورة التي رسمها لهم غسان كنفاني في قصته المذكورة وروايته التي لم تكتمل "العاشق".

يجب أن يشار، ابتداء، إلى أن فياض الذي ولد عام ١٩٣٩ وعاش في فلسطين حتـى عـام ١٩٤٨ وظل فيها مقيما حتى أبعد عام ١٩٧٤، إثر عمليـة تبـادل الاسـرى بيـن المصريين والاسرائيليين، كان قد كتب العديد من القصص القصيرة والنصوص المسرحية، وأتى فـي هـذه على ذكر الانجليز واليهود الذين رأى في الغربيين منهم غرباء عن فلسـطين جـاؤوا ليغـيروا ملامحها هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية رأى فيهم استعمارا أراد أن يطرد سكان البلاد منها.

أصدر فياض عام ١٩٦٨ مجموعته القصصية "الشارع الأصفر" وكان كتب معظم قصصها قبل عام ١٩٦٧ -أي قبل حرب حزيران، وتجرى أحداث قسم منها عام ١٩٤٨ وقبله بقليل، وفي هذه أتى على ذكر الانجليز. وأبرز قصة يأتي فيها على ذكر الانجليز هي قصة "الكلب سمور" التي يؤرخ فيها لحياة كلب امتلكه فلسطيني منذ اواسط الاربعينيات، كلب وفي يعود إثر الهجرة مباشرة إلى فلسطين مفضلا الموت في الوطن على المنفى وحياة اللجوء، وكان هذا الكلب اعتقل أيام الانتداب البريطاني من الانجليز. ويضطهد الانجليز سكان المدن والقرى معا، ويصل بهم الأمر إلى إصدار قرار لاعتقال الكلب سمور الذي هجم على الجندي البريطاني، ساعة اعتدى هذا على بوقاسم :

"أمر موقع بختم الدولة – بالتاج البريطاني، وبسجن كلب! الله عليك يا سمور..والله إنك احسن من عشرين شنب، باطل ....باطل هي وصلت لهون؟ بريطانيا العظمى أصحبت تصدر الأوامر بالسجن حتى على الكلاب..."[٥٢]

وأصدر فياض، وهو في المنفى، عام ١٩٦٨ مجموعة قصصية تحت عنوان "البهلول" يأتي في احدى قصصها، وهي قصة "الشيخ لافي الملك" على ذكر الانجليز، فزمنها القصصي يرتد إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

يسرد السارد عن معاناة الفلسطينيين من غير جهة :من الاقطاع الفلسطيني ومن الأتراك الذين يدعمون الاقطاع، وأخيرا من الانجليز الذين استقبلهم الناس، يوم دخلوا فلسطين، استقبالا جيدا ظانين انهم جاؤوا ليخلصوا الناس من ظلم الاتراك، وهذا ما انعكس، كما لاحظنا في أشعار اسكندر الخوري البيتجالي، ولكن أمل الناس سرعان ما خاب فالقائد الانجليزي اللنبي

"الذي استقبله الناس استقبال الابطال، لأنه جاء ليخلص الناس من حكم الأتراك وظلمهم، كما ظنوا لغبائهم، فأذلهم.." [٥٣]

وبدا القائد متعجرفا[٥٤]، ورأى فيه متصوفة فلسطين وفي الانجليز "أعداء الله" وأن اللنبي ليس سوى ملك انجليزي جاء لكي يسلم البلاد بعد ذلك لملك يهودي[٥٥].

إن صورة الانجليز هنا تتمثل في شخصية القائد اللنبي وفي أفراد الجيش، هؤلاء الذين رأوا في الثوار شيوعيين تجب محاربتهم.

ولا ينطلق فياض في تصويره للذات والآخر من منطلق ماركسي، كما هو الحال لدى سميح القاسم، ولكنه يكاد يقترب منه وان اختلفت الرؤية أيضا. يضع فياض فلسطين في المرتبة الاولى ولكنه لا يرى في الفلسطينيين مجموعة واحدة متجانسة متحابة متآلفة، هناك الفلسطيني الوطني المخلص الغيور، وهناك الاقطاعي الذي يتحالف مع الأتراك، إبان الحكم التركي، ولا يتردد في التحالف مع الانجليز يوم جاء هؤلاء، وهناك السمسار الذي يبيع الارض لليهود وتبدو صورة الريفي الفلسطيني في نصوصه، وهو ابن الريف، صورة ايجابية في المطلق، وتتشابه صورة الاتراك والانجليز والنظام الاردني والاحتلال الاسرائيلي في أن هؤلاء جميعا قمعوا الفلسطينيين البسطاء. إن آخر الفلسطيني في نصوص فياض كان دائما سلبيا، وبخاصة النظام، وهكذا تبدو صورة الاتراك وصورة الانجليز وصورة اليهود وصورة النظام الاردني، وليس على الفلسطيني الفقير بخاصة سوى أن يقاوم هؤلاء أو أن يعيش تحت حكمهم كارها. يبدو هذا واضحا في "وادي الحوارث"[٥٦] ، التي يتعدد فيها الاخر : الانجليزي واليهودي والنظام الاردني، وتتعدد فيها ايضا صورة الذات، إذ تطالعنا صور عديدة للفلسطينيين: صورة الفلسطينيين الذين تمسكوا بأرضهم ورفضوا بيعها وعملوا بعد أن هجروا من أجل العودة، فانتموا الى المنظمات السرية، وصورة سمسار الارض عثمان بك كلب الانجليز واليهود. وما يجدر ذكره هنا أن اخر توفيق فياض الجيد، من غير الفلسطينيين، هو جمال عبد الناصر، وكان فياض ناصريا واتهم بأنه يعمل لصالح المخابرات المصرية.

يتجسد ما سبق وذهبت اليه في المقطع الاول من الرواية التي تتكون من سبعة مقاطع، ففي نهايته يسرد السارد عن عيسى الذي ينقد النظام الأردني والأنظمة العربية ويثق بعبد الناصر ويرى في الوقت نفسه "ليس أكثر من مارد في قمقم من الخيانات العربية والانقسامات والعداءات والتخلف التي تحيط به من كل جانب وتكبله، وفي مواجهته ينتصب مارد عملاق وقاتل إلى جانب

اسرائيل اسمه امريكا"[٥٧] ويرى أن لا خيار أمام الفلسطينيين إلا أن يقاتلوا "لكي تكون فلسطين للفلسطينيين، وليس لهم غير هذا من خيار آخر"[٥٨]

يساعد الانجليز في فلسطين اليهود ويعلقون الثوار على المشانق، هذه هي صورة الانجليز بايجاز، ولكن فياض لا يكتفي بذلك بل نجده، خلافا لنصوصه السابقة، يجسدهم في الضابط ريتشارد وزوجته فلورا، ليقص السارد عن ريتشارد الكثير حتى ليصبح هذا شخصية محورية من شخصيات النص، شخصية لها اسمها وملامحها الخاصة، تصفها السيدة عائشة على النحو التالي :

"بشعره الاحمر الذي وخطه الشيب، ووجهه الاشقر المائل إلى الحمرة بجبينه العريض وحاجبيه الكثين وانفه البارز، وعينيه الزرقاوين القاسيتين، وقامته الطويلة المنتصبة، وبيديه الشعراوين الفطتين اللتين كانتا تقاومانها"[٥٩]

وهو انجليزي خبيث، فحين داهم بيت عيد ابو غالي في فلسطين قبل عام ١٩٤٨، عاث وجنوده بالبيت وقلبوه رأسا على عقب، وقد تقدم الضابط المساعد من خابية الطحين ليخرج مسدسا ملفوفا بقطعة قماش من تحت معطفه وليدسه في الخابية وليخرجه متوجها نحو عواد، حتى يعتقله ويقوده الى حبل المشنقة.

ويستطرد السارد في الحديث عن الضابط هذا، فيقص عن طفولته في بلدته (ساوث اند)، ويخبر عن دراسته وعلمه وخلافه مع أبيه الذي يبدو مغايرا له، ويبدو شخصا ايجابيا يريد لابنه أن يدرس الفن لا التاريخ العسكري، ويرى الأب، خلافا للابن، في شكسبير انسانا عظيما، ومن هنا يخاطبه حين يرى الابن في ريتشارد قلب الاسد أعظم من انجبته بريطانيا: -" شكسبير ...شكسبير.. لا يمكن ان يكون هؤلاء الحمقى من صلبك"[٦٠]

ويتصرف الانجليزي الذي يأتي إلى فلسطين، يتصرف مع الفلسطينيين، وهو مدفوع بعقدة صلاح الدين الذي طرد الفرنجة وهزمهم، وكأنه - أي الضابط- جاء ليثأر :

"هذا هو أنت اذن يا صلاح الدين...واحدة بواحدة..معركة بمعركة، وقلعة بقلعة..فلا حاجة لقراءة الكتب بعد، ولا حاجة لكل الخرائط والرسوم التي وضعت..بل سأراك ماثلا أمامي بلحمك

ودمك وأتابعك في كل معاركك التي خضت، وفي كل قلاعك وحصونك التي شيدت ، فاعرف كيف انتصرت..لكي لا يعرف نفر من صلبك بعدك النصر على اسد بريطاني قطع البحار اليه يحمل الصليب".(٦١)

ولكننا في الرواية نعثر على رأي ضابط انجليزي في العرب، هو الضابط (ميللر)، خبر العرب وعرفهم، اذ رآهم بعد تجربة "انهم مسالمون في الغالب، يعشقون الارض والخيل والبحر، ولكنهم عنيدون جدا عندما يتعلق الامر بالاستيلاء على اراضيهم وتدفق المهاجرين اليهود على شواطئهم بل وعنيفون ايضا..."(٦٢)

ومع ذلك نجده يتصرف بلا عقل، فحين يذكر ريتشارد على مسمع ميللر، ولنلاحظ دلالة الاسم وصلته بريتشارد قلب الاسد – ما قاله له ابوه عن معنى ان يكون المرء جنديا انجليزيا. أن تكون جنديا بريطانيا جيدا، يعني ان تكون انسانا بلا قلب"(٦٣) يعقب (ميللر):

"أما هنا في فلسطين، فلا بد وأن تكون بلا عقل ايضا"

وهكذا يبدو الانجليز في فلسطين: انهم جنود مستعمرون يقفون الى جانب اليهود، ويساعدونهم بلا حساب، ويقمعون الفلسطينيين قمع من لا قلب له ولا عقل، وهي الصورة التي بدت في ثلاثاء ابراهيم طوقان الحمراء".

وكما نلاحظ فان صورة الانجليز في نص فياض لا تختلف كثيرا عن صورتهم في نصوص الفترة الاولى، او نصوص الفترة الثانية التي كتبت لتصور سلوك الانجليز قبل عام ١٩٤٨، وهكذا يتشابه الكتاب الذين كتبوا عن الانجليز في فلسطين، بغض النظر عن الفترة الزمنية التي كتبوا فيها، ولا يختلف عنهم سوى اولئك الذين عاشوا في انجلترا، اذ التقوا هناك بافراد لم يكونوا جنودا في جيش الانتداب، ومع ذلك فصورة الانجليز، في معظم النصوص، تبدو صورة سلبية، وهي الصورة التي خبرها عرب فلسطين بعامة وعرفوها عنهم من خلال وجود الانجليز في بلادهم – أي في فلسطين.

الخلاصة

يستطيع المرء أن يدرك لماذا كانت صورة الانجليز، في الأدب الذي كتبه أبناء فلسطين، صورة سلبية على وجه العموم، ويستطيع أيضا ان يجد مبررا لاستمرار هذه الصورة التي اختفت أو كادت أن تختفي في الأدب العربي الذي كتب في السبعينيات وما بعدها، إلا إذا كتب الأديب عن احداث جرت إبان الانتداب البريطاني لبعض مناطق العالم العربي.

رحل البريطانيون عن أكثر المناطق التي انتدبوها واحتلوها وأصبح أهلها فيها يخضعون لحكم وطني، وهو مالم يحدث في فلسطين التي ما زال أبناؤها يعانون من سياسة بريطانيا السابقة وما جرته عليهم من ويلات، وليس غريبا أن يكتب فياض نصه "وادي الحوارث" مبرزا للانجليزي تلك الصورة السلبية.ويستطيع المرء عموما أن يقارن بين صورة الانجليز، هنا، وبين صورتهم في الأدب العربي، ليرى أنها كانت، الى حد بعيد، حتى نهاية الستينيات، تتشابه، ولنا في نصوص "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، "وموسم الهجرة الى الشمال" للطيب صالح ما يؤكد على ذلك، ولكن الطريف في الأمر أن تبرز الصورة السلبية للانجليز نفسها في كتابات بعض الادباء الصهيونيين مثل (ليون أوريس) صاحب رواية "أكسودس" الشهيرة، وفي بعض الأفلام التي عرضها التلفزيون الاسرائيلي وأظهر فيها مقاومة اليهود للانجليز، حين شدد هؤلاء على حرية اليهود في السيطرة على البلاد واحضار المهاجرين لها، علما بأن الانجليز هم الذين أصدروا "وعد بلفور" الشهير، وأعطوا فيه فلسطين لليهود.

والصورة التي تظهر في هذه الدراسة لا تعدل منها النصوص التي لم آت على ذكرها، وبخاصة مجموعة "أزهار برية" لحنا ابراهيم. إنها الصورة نفسها للجندي الانجليزي الذي يلاحق الثوار ويسجنهم، وهي الصورة التي عرفها أهل فلسطين عموما إلا من سافر إلى بريطانيا.

الهوامش

(١) تجدر الاشارة هنا الى كتاب جورج طرابيشي "شرق وغرب، رجولة وأنوثة" دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، بيروت، ١٩٧٧. والى دراسة (روتراود فيلاندت)، صورة الأوروبي في القصص والمسرح العربي الحديث، بيروت، ١٩٨٠ (بالألمانية). وبايجاز كتب عبدالله الخباص في كتابه

"القدس في الأدب العربي الحديث في فلسطين والأردن" عن موقف الشعر الوطني من الانجليز، انظر ص ٣٥ وما بعدها، عمان ١٩٩٥. وحول الغرب وفلسطين انظر: سمير شحادة التميمي، حسان فلسطين: سليم أبو الاقبال اليعقوبي ١٨٨٠-١٩٤١، القدس ١٩٩١. ص ١٥٧-١٦٧.

(٢) حول ذلك انظر إميل توما، فلسطين في العهد العثماني، القدس ١٩٨٣. ص ١٥٩ و ١٦٠.

(٣) إسكندر الخوري البيتجالي،مشاهد الحياة، القدس ١٩٢٧. ص ١٠٦، وعنوان القصيدة "رويدا أيها المدفع" وفيها يفتخر بالعرب ويهجو الألمان والأتراك. وقد أعجب الشاعر بالكاتب الانجليزي المشهور "شكسبير" ونظم، لهذا، قصيدة عنوانها "شكسبير وهملت" قرظ فيها الأول. (المصدر نفسه، ص ٢٧٤).

(٤) ثمة صورة ايجابية للانجليز برزت في شعر اسكندر الخوري البيتجالي وبولس شحادة، وهي صورة تعتمد أصلا على تصور الانجليزي لذاته، فقد صاغ هذان الشاعران شعرا، قصائد انجليزية تمجد الذات الانجليزية، حول ذلك انظر عبد الرحمن ياغي، حياة الادب الفلسطيني الحديث، ١٩٨١ ط٢، ص ١٩٤ و ١٩٥. ويظهر الشاعر اسكندر الخوري في قصيدة "أنا الشعب" صورة ايجابية للانجليز تتمثل في خضوع الملكة فكتوريا للقانون الذي سنه البرلمان. ويتغير رأي الشاعر في الانجليز، فيما بعد، وبخاصة بعد ان خدعوا العرب، ويظهر هذا في قصيدة "ألم وأمل" التي ظهرت في ديوان "آلام وأمال".

(٥) حول صورة الذات والاخر في شعر عبد الرحيم محمود انظر كتابي: "ظواهر سلبية في مسيرة محمود درويش الشعرية"، نابلس، ١٩٩٦.

(٦) عبد الرحيم محمود، ديوان، ص ٨٨.

(٧) صالح، فخري، ص ٨٣. ولم أعثر على ديوان أبي سلمى الذي يحتوي على هذه القصيدة، ومن هنا اعتمد على كتاب فخري صالح.

(٨) حول اليهودية والمسيحية والاسلام في الشعر الفلسطيني انظر (اشتيفان فيلد)، مجلة الكاتب المقدسية، آب وايلول ١٩٩٢. وانظر ايضا ياغي، ص ٢٣٣.

(٩) ابراهيم طوقان، ديوان، دار الأسوار، عكا . د. ت، ص ٤٣.

(١٠) طوقان، ديوان، ص ٤٩.

(١١) طوقان، ديوان، ص ٤٩.

(١٢) طوقان، ديوان، ص ٨٢.

(١٣) طوقان، ديوان، ص ٩١.

(١٤) طوقان، ديوان، ص ٩٣.

(١٥) ابراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت ١٩٩٣. ط٢. ص ١١٣.

(١٦) صدرت الطبعة الاولى عام ١٩٤٣ عن دار المعارف بمصر، وعلى هذه اعتمد.

(١٧) رأي دارسون كثر في الرواية، رواية رمزية، ومنهم د. طه حسين في تقديمه لها، وفاروق وادي في كتابه "ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، وخالده الشيخ في كتابها "الرمز في أدب غسان كنفاني"، وقد ردّ المؤلف على فاروق وادي منكرا عليه تفسيره (الشراع المقدسية، عدد ٣٣/ سنة ١٩٨١).

(١٨) الحسيني، مذكرات دجاجة، ص ١٠٦.

(١٩) الحسيني، مذكرات دجاجة، ص ١١١.

(٢٠) الحسيني، مذكرات دجاجة، ص ١١٣.

(٢١) الحسيني، مذكرات دجاجة، ص ١١٧.

(٢٢) الحسيني، مذكرات دجاجة، ص ١١٧.

(٢٣) الحسيني، مذكرات دجاجة، ص ١٢٣.

(٢٤) نظر: عادل الأسطة، اليهود في الأدب الفلسطيني بين عامي ١٣-١٩٨٧، القدس، ١٩٩٢. ص ٧٠-٧٢.

(٢٥) رائد حسين، الأعمال الشعرية، الطيبة، ١٩٩٠. ص ١٧٦. ويبدو الانجليز في قصائد "خداع" و "آسيا لن تموت" مستعمرين جزارين قتلة تخلوا عن المحبة التي تدعو اليها الكنيسة، يلهثون وراء السيادة ويعتقدون أنهم أفراد يرغبون في إنقاذ غيرهم. ولكن الحديث هنا يشمل الغرب بشكل عام، وآسيا كلها هي التي تتكلم:

" أنا آسيا زندي تحطم قيده
وعلى الزنود تحطم الأصفاد
يا لاهيا في الغرب فيم تريدني
لك عبدة مذلولة تتقاد"

(انظر، الأعمال الشعرية، ص ٢١٩).

ويرى الشاعر الانجليز بشرا من صفاتهم البرود، فهو يتحدث في قصيدة "تشرين الثاني"، ويرى :

نظراته ثلجية جوعى تفتش عن غذاء
فيها برود الانجليز ... وغدر تجار الدماء

(السابق، ص ٢٤٤)

(٢٦) غسان كنفاني، القصص القصيرة (آ.ك) بيروت، ١٩٨٧. ط٣. ص ٨٢٣.

(٢٧) غسان كنفاني، الروايات، ص ٤٤١

(٢٨) كنفاني، القصص القصيرة، ص ٦٦٢.

(٢٩) كنفاني، القصص القصيرة، ص ٦٦٣.

(٣٠) تظهر صورة الانجليزي في ديوان الشاعر "الكتب السبعة" (بيروت، ١٩٩٤، وبخاصة في القصيدة التي تحمل عنوان "كتاب كارولاين" (ص ١٢٩-١٣٦). وتبدو (كارولاين) فتاة طيبة وهي ذات توق عالمي الى لغة تتخطى حواجز "لا" لتقيم اشواقها في معابد "نعم"، ويلتقي فيها الشاعر في حيفا، ويكن لها الود والاحترام.

(٣١) سميح القاسم، السربيات، (آ.ك)، كفر قرع، ١٩٩٢، مجلد ٤، ص ١٦٨.

(٣٢) القاسم، السربيات، ص ١٧٥.

(٣٣) تجدر الاشارة هنا الى مقالة خليل الشيخ "فدوى طوقان والغرب" وقد نشرها في مجلة "الجديد في عالم الكتب والمكتبات" ع ٦، ربيع ١٩٩٥. وقد أثار السؤال التالي: "كيف يمكن أن نفسر التناقض بين الشعر والسيرة فيما يتعلق بعلاقة فدوى بالغرب الاوروبي؟" (ص ٣٧). وقد ذكر سببين لذلك اولهما ان فدوى كانت في شعرها مسكونة بالقلق الجماعي، في حين انها كانت في سيرتها تنطلق من منطلق الفرح الذاتي الخاص، وثانيهما ان العلاقة بين الشرق والغرب في القصيدة غدت اكثر اكتمالا ونضجا لارتباطها بالجانب الحضاري. وأرى ان هناك سببا آخر لعله الاهم وهو يرتبط بلحظة الكتابة والحالة التي يكون عليها الكاتب فيها. لقد كتبت فدوى قصيدتها وهي قريبة من لحظة التجربة، وهي التي لم تعتد العيش في مدن كبيرة، وكتبت سيرتها وهي في نابلس تحت الاحتلال، ولعلها كانت تختنق من قيوده وتبحث عن مخرج فوجدته في ماضيها، ويعرف من مرّ بتجربة فدوى، انه كان، وهو في الغرب، يحن الى بلاده، حتى إذا ما عاد اليها آخذ يحن الى الغرب الذي عاش فيه. ثمة حنين دائم الى ما يفتقده المرء، ولعل فدوى وهي تكتب سيرتها تحت الاحتلال نسيت الشوارع المزدحمة "في المدينة الهرمة" والضباب، ولم تتذكر الا ما هو مفرح!! وحول صورة انجلترا في سيرة فدوى انظر: نادية عوده، الشعر جسر نحو العالم الخارجي، دراسة في سيرة فدوى طوقان، نابلس، ١٩٩٨، ص ٨٤-ص ٩١.

(٣٤) فدوى طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت ١٩٩٣. ص ٤٤٧.

(٣٥) فدوى طوقان، رحلة جبلية، عكا ١٩٩٤. ص ١٦٢.

(٣٦) طوقان، رحلة صعبة، ص ١٦٣.

(٣٧) طوقان، رحلة صعبة، ص ١٦٤.

(٣٨) طوقان، رحلة صعبة، ص ١٦٦.

(٣٩) طوقان، رحلة صعبة، ص ١٧٤.

(٤٠) طوقان، رحلة صعبة، ص ١٧٦.

(٤١) طوقان، رحلة صعبة، ص ١٧٨.

(٤٢) طوقان، رحلة صعبة، ص ١٨٦.

(٤٣) طوقان، رحلة صعبة، ص ١٩٢.

(٤٤) جبرا ابراهيم جبرا، شارع الاميرات، بيروت، ١٩٩٤.

(٤٥) جبرا ابراهيم جبرا، البئر الأولى، لندن، ١٩٨٧.

(٤٦) جبرا ابراهيم جبرا، شارع الاميرات، ص ٣١.

(٤٧) جبرا ابراهيم جبرا، شارع الاميرات، ص ٤٧.

(٤٨) جبرا ابراهيم جبرا، شارع الاميرات، ص ٦١.

(٤٩) جبرا ابراهيم جبرا، شارع الاميرات، ص ٣٨.

(٥٠) جبرا ابراهيم جبرا، شارع الاميرات، ص ٣٦.

(٥١) جبرا ابراهيم جبرا، شارع الاميرات، ص ٤٨.

(٥٢) توفيق فياض، الشارع الأصفر، الناصرة، ١٩٦٨. ص ١٠٨.

(٥٣) توفيق فياض، البهلول، بيروت، ١٩٧٧. ص ٣٠.

(٥٤) توفيق فياض، البهلول، ص ٣١.

(٥٥) توفيق فياض، البهلول، ص ٣٤.

(٥٦) من الروايات التي صدرت في التسعينات، وزمنها الروائي في الاربعينيات، رواية "الجرة" لنازك ضمرة (١٩٩٧) وتبدو صورة الانجليز فيها سلبية، ولا تختلف عن صورتهم في ادب ما قبل ١٩٤٨.

(٥٧) توفيق فياض، وادي الحوارث، بيروت، ١٩٩٤. ص ١٢.

(٥٨) فياض، وادي الحوارث، ص ١٣.

(٥٩) فياض، وادي الحوارث، ص ٢٧.

(٦٠) فياض، وادي الحوارث، ص ٥٧.

(٦١) فياض، وادي الحوارث، ص ٥٨ وتذكر هذه الفقرة القاريء العربي بعبارة القائد الفرنسي (غورو) يوم زار هذا قبر صلاح الدين وركله بقدمه : "الآن تنتهي الحروب الصليبية يا صلاح الدين"، وهي تجعلنا نقول ، ونحن مطمئنون، الى أن تشكل الصورة عن الانجليز في كتاب فياض يعتمد على السماع وعلى قراءة التاريخ. حول موقف الاوروبيين من صلاح الدين انظر (Werner Ende): من هو البطل المؤمن؟ من هو الملحد؟ مجلة الكاتب المقدسية، آيار، ١٩٩٢، وقد نقلتها عن الألمانية.

(٦٢) فياض، وادي الحوارث، ص ٦٢.

فياض، وادي الحوارث، ص ٦٢.

المصادر والمراجع

١. المصادر

١. جبرا، جبرا ابراهيم، شارع الاميرات، فصول من سيرة ذاتية، بيروت، ١٩٩٤.

٢. حسين، راشد، الاعمال الشعرية، الطيبة، ١٩٩٠.

٣. الحسيني، اسحق موسى، مذكرات دجاجة، القاهرة، ١٩٤٣.

٤. طوقان، ابراهيم، ديوان ابراهيم طوقان، عكا، دار الاسوار، د. ت

٥. طوقان، فدوى، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، ١٩٩٣.

٦. طوقان، فدوى، رحلة صعبة...رحلة جبلية، عكا ١٩٩٤.

٧. فياض، توفيق، وادي الحوادث، بيروت، ١٩٩٤.

٨. القاسم، سميح، الأعمال الكاملة، السربيات، كفر قرع، ١٩٩٢. مجلد ٤ .

٩. القاسم ، سميح، الأعمال الكاملة، المسرح والحكاية، كفر قرع، ١٩٩٢، مجلد ٥.

١٠. كنفاني، غسان، الاثار الكاملة : الروايات، بيروت، ١٩٨٦. ط٣.

١١. كنفاني، غسان، الاثار الكاملة: القصص القصيرة، بيروت، ١٩٨٧. ط٣.

٢. المراجع

١. الأسطه، عادل، اليهود في الادب الفلسطيني بين عامي ١٣ و ١٩٨٧، القدس، ١٩٩٢.

٢. الأسطه، عادل، ظواهر سلبية في مسيرة محمود درويش الشعرية، نابلس، ١٩٩٦.

٣. سالم، خليل محمد، اسكندر الخوري البيتجالي: حياته وأدبه، بيت جالا ، ١٩٨١.

٤. الشيخ، خليل، فدوى طوقان والغرب، الجديد في عالم الكتب والمكتبات، ربيع ١٩٩٥، عدد٦، ص ٢٥ وما بعدها.

٥. شيخ خليل، خالدة، الرمز في أدب غسان كنفاني، قبرص ١٩٨٩.

٦. صالح، فخري، ابو سلمى: التجربة الشعرية، بيروت ١٩٨٢.

٧. عودة، نادية، الشعر جسر نحو العالم الخارجي، دراسة في سيرة فدوى طوقان الذاتية، نابلس ١٩٩٨.

٨. ياغي، عبد الرحمن، حياة الأدب الفلسطيني الحديث، بيروت ١٩٨١ ط٢.

٤. الشيخ، خليل، فدوى طوقان والغرب، الجديد في عالم الكتب والمكتبات، ربيع ١٩٩٥، عدد٦، ص ٢٥ وما بعدها.

٥. شيخ خليل، خالدة، الرمز في أدب غسان كنفاني، قبرص ١٩٨٩.

٦. صالح، فخري، ابو سلمى: التجربة الشعرية، بيروت ١٩٨٢.

٧. عودة، نادية، الشعر جسر نحو العالم الخارجي، دراسة في سيرة فدوى طوقان الذاتية، نابلس ١٩٩٨.

٨. ياغي، عبد الرحمن، حياة الأدب الفلسطيني الحديث، بيروت ١٩٨١ ط٢.